
هنري لورنس
شرقيات
كليبر في مصر
المواجهة الدرامية مع بونابرت
ترجمة : بشير السباعي

كليبر في مصر

المواجهة الدرامية مع بونابرت

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

العنوان الأصلي لهذا البحث

Kléber en Egypte

تأليف:

Henry Laurens

إصدار:

IFAO

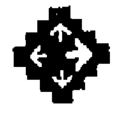
Le Caire, 1988

كليبر في مصر

هنري لورنس

ترجمة بشير السباعى

الطبعة الأولى ١٩٩٩



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ س ت: ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف: ذات حسين

لوحة الغلاف:

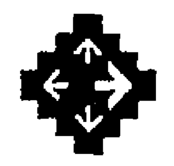
«كليبر، قائداً عاماً» للفنان آنسيو

هنري لورنس

كليبر في مصر

المواجهة الدرامية مع بونابرت

ترجمة: بشير السباعي



دار شرقيات للنشر والتوزيع

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

مختارات*

باب النصر. بعد بابي سان ديني وسان مارتان في باريس، لا أعرف له في فرنسا مثيلاً في جماله وعظمته. إن العمارة الرومانية تلتقي دون مشقة بالعمارة العربية. وهو، بصرف النظر عن ذلك، يتميز بتنفيذ رائع الجمال.

كليبر، **يوميات مصر**

بمناسبة عيد الأول من فانديميير، أمر بونابرت بأن يتم في أحد ميادين القاهرة نصب مسلة شاهقة الارتفاع، ليس من الجرانيت بل من سماك مغطى بكتان عليه رسوم، مثلما جرت العادة على ذلك في أيامنا. وبعد الاحتفال بالعيد، أحدث الجنود فتحة في القاعدة ودخلوا إليها. وقد وجدوا المكان مناسباً للهو مع القحبات المصريات، وسرعان ماأصبح مرتعاً للرذيلة وللفجور. وفي النهاية، اختفى غطاء هذا النصب تماماً. وهذا الأثر الذي كان في البداية جد رائع ويناطح السماء، وقد كف عن أن يكون غير وكر شائن ومثير للسخرية، إنما يشتهي ويتحسس سقوطه الوشيك. فإمّا أن أكون مخطئاً بشكل فادح، أو أن قصة هذا الأثر، الذي أعلنَ نبأُ تشييده لأوروبا بالطبل وبالزمر، سوف تكون قصة بونابرت نفسه.

كليبر، **يوميات مصر**

---

* المختارات من اختيار المترجم.

إن الشعب منزعج، وهو لا يرى فينا، وهو شيء يمكن تصوره، غير أعداء لما يملك. وقلبه مفتوح أبداً على الأمل في حدوث تغير مؤات.

كليبر، **رسالة إلى حكومة الإدارة،**
٢٦ سبتمبر ١٧٩٩

_ لماذا قاتلت حتى الآن؟

- لأجل مجد جيوشنا ولأجل الحرية. ومجد جيوشنا في الذروة. لكن الحرية تبتعد بقدر ما أتقدم...، ماذا أقول؟ إنها لم تعد لها قائمة. بل إنها لم توجد قط. وأنا لا أملك منها غير الأمل فيها؛ وهذا الأمل يبهت. إلاّ أنه يبقى لي مع ذلك سبب قوى لمواصلة عملي، إن كان صحيحاً أنني أقوم به بشيء من التوفيق؛ وهو أن أسهم، قدر الإمكان، في أن لاّ يتدخل الأجانب في شئوننا الداخلية. فأنا أعتقد أن الشيء الذي يمكن أن يكون أكثر إهانة لأمة من الأمم هو أن تتلقى من الخارج قوانين وحكومة. هذا هو الحدث الوحيد الذي إن حدث سيجعلني أتنكر إلى الأبد لوطني ولأعمالي.

كليبر، **يوميات مصر**

كلمة من المترجم

بين أمور أخرى، شكلت الحملة الفرنسية على مصر ترجمة للانحطاط الثيرميدوري للثورة الفرنسية والذي شكل مدخلاً إلى البونابرتية التي دشنها إنقلاب ١٨ برومير.

وبهذا المعنى، كانت الحملة مفصلة بين ثورة آفلة واستبداد عسكري. وطبيعي أن هذا الواقع هو الذي يسمح بتكشف تباين الرؤى بين مختلف المشاركين والمتورطين في الحملة، حيث يصبح الموقف من مصائرها جزءٍ من النزاع حول مغزى الثورة نفسها ومصائرها التاريخية.

وهذا الكتاب لا يتحدث عن الحملة أساسا إلاّ من زاوية رصد هذا النزاع، مركزاً على محاوره المستترة في تطور العلاقات بين كليبر وبونابرت.

وقد ظهرت هذه الدراسة التاريخية في الأصل علي شكل تقديم لأوراق كليبر في مصر والتي صدرت عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة في عام ١٩٨٨. وقد أتيحت أمام هنري لورنس فرصة ثانية للعودة إلى هذا الموضوع في ندوة عقدت بالمركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة في ٢٧ مارس ١٩٩٦، شارك فيها كاتب هذه السطور الذي شدد في كلمته على بيان أن عمل لورنس الأشهر، **الحملة الفرنسية في مصر**، إنما يدرج الحملة المذكورة "ضمن سياق نزوع أساسي أنجبته الثورة البورجوازية الآفلة، هو النزوع إلى تأكيد التجانس وإلى محو تنافر الألوان، أي إلى إنهاء

حق الاختلاف، وهو حق من حقوق الإنسان، من أجـــل تـــأكيد حـــق الاستعمار، بما يدل على الانحطاط الذي أصـــاب الثـــورة".

وقد أوضح لورنس هذه الفكرة مجدداً في حواره مع كاترين فـــارحي والذي يظهر هنا في خاتمة هذه الدراسة، كما عاد مترجم هذه الدراسة إلى طرحها في مقال له حول "الحملة الفرنسية: المغزى والمصير" أكد فيه علـــى مهمة إعادة بناء العالم بأسره على أسس جديدة تكفل احـــترام الآخريـــة والتحرر الإنساني بديلاً عن الاغتراب، وبديهي أن مثل هذه الأســـس لا يمكن أن تكون أسس المجتمع البورجوازي المعاصر، بل أسس مجتمع آخـــر يشكل نفياً جدلياً للأخير.

وواضح أن الهدف من هذه الترجمة هو تهيئة الأذهان لتأمل إشـــكالية النـــزاع حول مصائر الثورة الفرنسية ونحن على أبواب الذكرى المئويـــة الثانية لانقلاب ١٨ برومير الذي دشن المغامرة النابوليونية، بعد أن كـــانت الحملة على مصر قد أومأت إلى هذه المغامرة.

القاهرة، ١٤ أبريل ١٩٩٩
بشير السباعي

تمهيد

أترون هذه السواحل الرملية الموحشة،
حيث تنشر بحيرة طبرية مياهها المالحة؟
أترون جبل الكرمل الذي يتدفق من واديه الأخير
نهر بلا مجد إلى سهول ايسدرلون؟
أترون الناصرة وقانة، الموسومتين ببصمات المَسْيا،
وقمة جبل حرمون التي تظللها أشجار الأرز؟
تلك الأماكن المقدسة التي يرى المسيحي أنه مايزال بوسعه أن يرصد منها الهالة السماوية على قمة جبل طابور؟
على هذه الجبال، على سفوح التلال المشجرة،
على هذه التخوم التي بلا أزهار والتي يخترقها نهر الأردن.
مائة ألف مسلم، لا أحد منهم يعرف الآخر،
يجيئون من أطراف آسيا إلى جبل طابور،
بهجمتهم الدائرية يطوقون منذ الفجر
هذا المربع الذي يرفع علماً ثلاثي الألوان،
كليبر هناك... كليبر، على هذه البقعة المعزولة،
مثل صخرة بحرية ينوشها المحيط،
إذ يكسر الموجات السوداء لهذه الأقوام التي لا اسم لها
يبعد هزيمته بقوة الانتصارات.
واقفاً بين جنوده، يطل عليهم كلهم؛
هامته المرتفعة والأبية تتحدى جميع الضربات؛

لا شيء يمكنه هز رباطة جأشه،
مكتوب عليه إما أن يموت أو ينقذ فرنسا،
يقبل العبء بحكم شعوره السامي بالواجب،
كذلك، لابد لك من أن تزهو مرة أخرى
كذلك، في صحراء خصبة بالانتصارات،
عندما سوف يحارب مائة ألف عثماني جنودك الذين لن يزيدوا عن عشرة آلاف
وتجد نفسك مجبراً على اجتراح معجزة أخرى
سوف يبهر مجدك مدينة الشمس!..

Barthélemy et Méry, *Napoleon en Egypte,* chant septieme,
Quatrième édition, Paris, 1828,pp. 161-163.

"لنذكر جنرال طليعة ماينس، الخالد، سيئ الحظ كليبر. كان آنذاك رجلاً في الثانية والثلاثين من عمره [الواقع أنه كان في الثانية والأربعين. -هـ. ل.]، وكان يتميز بنضج يستحق الإعجاب وبشخصية عسكرية تلهم المرء الشجاعة عندما يراه. كان مثقفاً واسع المعارف وقد خاض جميع حروب ألمانيا. وفي ماينس، عهدوا إليه بقيادة المواقع الخارجية الأمامية، أي بخوض معركة تواصلت على مدار مائة وعشرين يوماً. وكانت المكافأة في انتظاره على الحدود. لقد اعتقلوه. هكذا كان مصيره. كان ضحية في الفانديه، وكان ضحية على ضفاف نهر الراين، حيث تركوه دون عون أو مدد. وكان ضحية في مصر. وهو ما يزال ضحية في التاريخ".

Michelet, *Histoire de la Revolution Française,* Livre XIII, chapitre V.

يطرح القرن التاسع عشر الفرنسي على نفسه دون توقف مسألة الثورة والإمبراطورية، وما ذلك إلاّ لأن مصيره إنما يجد تمثيله في هذا التساؤل نفسه. والحال أن الأسطورتين، الثورية والإمبراطورية، متعارضتان وتتمم إحداهما الأخرى سواء بسواء في هذا السياق. وغالباً ما يعبر الجدل عن نفسه في مقابلة بين شخصيات بأكثر بكثير مما في صوغ مفاهيم (متعارضة)، مادام أنه بدءً من لحظة معينة حلت فجأة عبادة رجل، هو نابوليون، محل دخول الإيديولوجيات الحديثة مسرح التاريخ [1].

وهذا التحول الحاسم لتاريخ الثورة، نهاية الإدارة وبداية القنصلية، إنما يتميز أيضاً بلحظة الحملة الفرنسية على مصر والتي تعلن لأوروبا ولفرنسا أن مستقبلهما سوف يصاغ أيضا خارج رأس آسيا الصغير.

وهذه المشكلة المزدوجة، مصير الثورة والمشروع الاستعماري، هي العنصر الأساسي للمواجهة الدرامية بين هذين النقيضين: كليبر وبونابرت.

وكما يبين النصان اللذان استشهدنا بهما على رأس هذا التمهيد، تنسب الأسطورة إلى كليبر دور الشهيد، كما لو أن حياته ما كان يمكن أن تكون لها نهاية أكثر منطقية من اغتياله في القاهرة في عين يوم انتصار القنصل الأول (بونابرت – المترجم) في مارينجو. إلا أن من المحتمل أنه قد مات في ذلك اليوم شيء يتجاوز

الرجل، مفهوم معين عن الجيش وعن الثورة.

لقد احتفظت أرشيفات جهاز تاريخ الجيش البري بالشهادات الرئيسية لهذا التاريخ: مراسلات كليبر الرسمية في مصر وكذلك أوراقه الشخصية (لم ينجح نابوليون في إعدامها كما كان يعتزم). وهي تسمح بالدخول إلى حميمية هذا الرجل غير العادي الذي كانه كليبر، وبفهم طبيعة انزعاجه وتردده تجاه صعود بونابرت، وهو موقف يشاطر فيه مجمل الكادر الثوري، وبمعرفة الواقع اليومي لبدايات الحملة، خاصة في الإسكندرية، وباستعادة صور عنف ووحشية الحملة على الشام في عام ١٧٩٩، والتي يعبر القدر فيها عن رفضه الأول لبونابرت كما تشكل استشرافاً لمصائر حملة ١٨١٢ (على روسيا - المترجم).

حاشية التمهيد

١- "يبدو التاريخ هنا وكأنه قد سقط في هاوية. فهو يسقط من الموضوعات الكبرى العامة، الجماعية، ومن الأفكار، ومن الجماهير الشعبية، لينزل إلى الفرد، إلى السيرة الشخصية الخالصة.

"ففي ظل روبسبيير، وفي ظل الجبل، والجيروند، والمؤتمر، وقبل ذلك، في ظل الجمعية التأسيسية، وقبل ذلك أخيراً في ظل الفلاسفة، وفي القرن الثامن عشر بوجه عام، كانت الأولوية الأولى **للفكرة** على كل ماعداها، وإذا كان **الفرد** يصبح موضوعاً للنقاش، فلم يكن ذلك إلاّ بمناسبة مناقشة الفكرة. وغالباً ماكان **الفرد** يتميز بمكانة كبيرة، ولكن بما يتناسب مع الفكرة التي يبدو أنه يمثلها.(...)

"وهنا، فإن بلورة الفكر والتجريد الجميلة هذه، إذ تبهت بشكل ثابت، إنما تنحدر، كما لو كان في هوة عميقة من التجسد المادي. فيبدو وكأن الذهن البشري قد نسي كل مفهوم، كل نظرية، كل لغة. إن كلمة وحيدة قد حلت محل كل شيء في الأدمغة البائسة، كلمة واحدة جرى تحريفها بل وليست فرنسية أصلاً: **بونابرتي** (كلمة كورسيكية حرفها نابوليون إلى بونابرت كجزء من سعيه إلى نسيان أصله الكورسيكي غير الفرنسي. -المترجم)".

" إلاّ أنه اذا كان ممايستثير الفضول والاستغراب أن نشهد سقوط الذكاء الذي انحط فيه العالم، فليس أقل مدعاة للفضول وللاستغراب أن نرى كيف قام مدعي صنع المعجزات العظيم، المشعوذ الخارق الذي قام بهذه المعجزات التي لا تستند إلاّ إلى الإيهام وإلى استخدام عمى الناس، بالتحضير لحرفته الغريبة. على العلم والأفكار والأمة السلام! على الوطن السلام!... لقد جرت تنحية كل هذه الأمور. ومايهمني هو الانكباب على الحديث عن... رجل" (ميشليه: **تاريخ القرن التاسع عشر**، المجلد الأول، **الإدارة، أصل بونابرت**، باريس، ١٨٧٥، ص ص ٣٣١-٣٣٣).

تعرض عمل ميشليه الأخير هذا للإهمال البالغ، والأرجح أن السبب في

ذلك هو عداوته العنيفة لبونابرت. على أن هذا العمل يقدم عناصر أساسية لفهم بدايات القرن التاسع عشر وخاصة فيما يتعلق بالرهانات العالمية للحملة الفرنسية على مصر.

الفصل الأول

كليبر قبل الحملة على مصر[1]

حياة كليبر قبل الحملة هي عبارة عن تقلبات بين العالم المدني والفعل العسكري. وهو رجل مسكون بالإحساس العميق بجدارته وبكرامته، الأمر الذي يقوده إلى نبذ كل مؤامرات الطموح. وهذا التمسك بكرامته يقوده إلى ما يمكن اعتباره مسالك فشل حقيقية.

ولد في ٩ مارس ١٧٥٣ في ستراسبورج في أسرة تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة. ووالده، الذي يموت بعد مولده بسنوات قليلة، هو شرطي برتبة رقيب. وسرعان ماتتزوج أمه من جديد من بنّاءٍ معماري عليه أن يتولى مهمة تربية ابن زوجته هذا المشاكس.

وشبابه شباب عاصف موار بالحركة. وزوج أمه يتمنى له اتخاذ عين مهنته ويدرجه في عداد صبيان النحاتين للحجر في ستراسبورج. وفي التاسعة عشرة من عمره، يجري إرساله إلى باريس تلميذًا لشالجران، معماري سان فيليب دو رول. وهكذا يتعلم قواعد العمارة الكلاسيكية الجديدة. على أنه سوف يتسنى له في القاهرة تقدير قيمة الفن الإسلامي.

ويحيا التلميذ الشاب حياة ريتيف دو لا بريتون، لكنه لا يملك إمكاناتها المادية ولذا يضطر إلى الاستدانة، مما يؤدي إلى استدعاء أسرته له إلى ستراسبورج حيث سرعان ما يستولي عليه الضجر. ولما كانت الحياة العسكرية والمغامرة مصدر غواية له منذ وقت بعيد، فإنه ينخرط في قوى شباب المقاتلين التي تتبع أمير بافاريا في ميونخ، ثم يدخل في عام ١٧٧٧ في خدمة الجنرال الكونت كونيتز،

ابن وزير ماري – تيريز، كمهندس معماري في البداية ثم كضابط في فوجه المرابط في المنخفضات النمساوية. وفيما بعد، في الحروب (الفرنسية ضد.. – المترجم) ألمانيا، سوف يَهْزِمُ حاميه السابق.

والحال أن كوزموبوليتية عصر التنوير، العصر الذي يسبق صعود النزعات القومية الذي حفزته الثورة والإمبراطورية، إنما تسمح بفهم المسيرة العملية الألمانية لرجل سوف يصبح في أواخر القرن التاسع عشر رمز ارتباط الألزاس بفرنسا. والانتقال من العمارة إلى الحياة العسكرية في خدمة شخص واحد ليس فيه ما يدعو إلى الدهشة في نهاية عصر التنوير تلك. ثم إنه، بالرغم من عنف شخصيته وخشونة معجمه وسلوكه، لا يكف عن قراءة أعمال حول أكثر الموضوعات تنوعاً. وبحكم هذا كله، يندرج كليبر الشاب اندراجاً تاماً في ثقافة وفي طرائق عصره.

لكن أوروبا في حال سلم وكليبر يبدي طابعاً عنيفاً وميالاً إلى النزاع بالرغم من افتقاره إلى حمايات عائلية. ولذا فإنه لا يتخطى رتبة الملازم الأول. وإذ يشعر باليأس من المهنة العسكرية، فإنه يأخذ إجازة في عام ١٧٨٣. وفي الثلاثين من عمره، بالرغم من امتلاكه ثقافة عسكرية ومدنية تتممها قراءات واسعة، فإنه يجد نفسه بلا أية مكانة في المجتمع.

ويحصل له زوج أمه في عام ١٧٨٤ على وظيفة مفتش على المباني العامة في بلفور. ولما كان قد أصبح متعقلاً، فإنه ينكب على العمل ويؤدي واجبه بإتقان مع ممارسته في الوقت نفسه لمهنته كمعماري، ملتزم دائماً بالأسلوب الكلاسيكي الجديد. وندين له، بين أشياء أخرى، بمشروع برج للأمير دو مونبليار، يستلهم عشق مصر الرائج آنذاك، فنجد فراعنة وأبا هول ونقوشاً هيروغليفية، يبدو أنها كلها ذات مصدر إلهام ماسوني.

والحال أن صديقه وأول كاتب سيرة له، وهو لوبير ديريكور،

قد قدم لنا وصفاً لمظهر كليبر في فترة ما قبـــل الثـــورة:

"كان كليبر واحدًا من أكثر رجال عصره وسامة، وكـــــان طولـــه يصل إلى نحو ستة أقدام، ويتميز قده بالتناسب التام مـــع هـــذا الطـــول؛ وكانت نظرته رقيقة أو مريعة بحسب ما يحرك كوامنه. وبالرغم مـــن أن عينيه لم تكونا واسعتين إلاّ أنهما كانتا معبرتين بشكل فريـــــد؛ وكـــانت أسنانه بيضاء إلى أبعد حد وكان يهتم بالحفاظ عليها اهتمامـــاً عظيمـــاً؛ وكان جرس صوته مريحاً تماماً عندما يكون هادئاً، بينما كان يتحـــول إلى جرس راعد عندما يجتاحه الغضب. ولما كان أنيقاً دائماً، ولكـــن بـــأكثر الأشكال بساطة، فقد كان مرغوباً بلهفة، ولو أنه كان يبدو حريصاً علـــى الانـــزواء: وقد نَسَبَ إلى قامته، إلى مظهره، غالبية الأحداث الســـارة أو المحزنة في حياته"[٢].

وسوف يقول بونابرت فيما بعد: "ليس هنـــاك مـــن هـــو أجمـــل من كليبر يوم المعركـــة[٣]".

وكان من الممكن أن يواصل كليبر هذه الحياة جد الهزيلـــة علـــى وجه الإجمال لو لم تؤد الثورة إلى قلـــب نظـــام الأشـــياء. ولمـــا كـــان نصيراً للتنوير، فإنه يقبل الثورة بحماس. وبوصفـــه أحـــد رجـــال عـــام ١٧٨٩ لا عام ١٧٩٣، فإنه يظل معتدلاً. وهو لا يلتحـــق إلا متـــأخراً بنادي اليعاقبة المحلي ولا يبدو مداوماً على حضور الجلســـات. إلا أننـــا ندين له بالتنظيم العملي والفني لعدة أعيـــاد مدنيـــة.

وهذه الثورة، التي يناصرهـــا، تـــؤدي إلى خـــراب زبـــائن فـــن العمارة، الهيئات الكنسية وكبار النبلاء المحليين. ولـــذا فـــهو يضطـــر إلى الاستدانة من جديد. وتجنيد المتطوعـــين بـــدء مـــن الحـــرس الوطـــني، والذي أمرت به الجمعية التأسيسية في عـــام ١٧٩١، هـــو بالنســـبة لـــه طريق الخلاص. والحال أن المهنة العسكرية تنفتـــح عليـــه هـــذه المـــرة بشكل أفضل خاصة وأن ضباط الجيش الجديد، بـــالرغم مـــن انتخـــاب الجنود لهم، يجب أن تكون لديهم بالفعل خـــبرة عســـكرية. وســـرعان

ما يصبح واحداً من ضباط كتيبته الرئيسيين.

وهو يدخل التاريخ بفضل تقدم الجيوش الفرنسية بعد فالمي. ويتعرض جيشه للحصار في ماينس في أواخر عام ١٧٩٢. وهو يصبح أحد أبطال الحصار. ويتلقى مهمة الدفاع عن الأعمال الخارجية. وهو أحد المنظمين الرئيسيين للدفاع الرائع عن هذا الموقع في وجه قوات أكبر عدداً بدرجة طفيفة.

وتستسلم ماينس في ٢٣ يوليو ١٧٩٣ مع الاحتفاظ بأمارات الشرف الحربي: فبوسع الفرنسيين الجلاء عن المدينة مع أسلحتهم مع التعهد بالتوقف عن محاربة قوات الائتلاف لمدة عام. وفي فرنسا، كان الإرهاب قد بدأ وكان الثوار مرتابين في الجيش. ويجري اعتقال ضباط جيش ماينس بدلاً من تهنئتهم. والحال أن كليبر، بالرغم من أنه قد أفرج عنه بسرعة هو ورفاقه، سوف يظل، وقد شعر بالمرارة، عميق العداوة للبعاقبة.

ويجري ارسال "جماعة ماينس" إلى الفانديه، فالسلطات الثورية ترى أن الحرب الأهلية ليست مدرجة في بنود الاستسلام، وهي حرب رهيبة، فهي صدام تعصبين(٤). والفظائع متواصلة ويرتكبها الطرفان الموجودان في الساحة.

وتحتدم في داخل صفوف الجيوش الجمهورية أزمة قيادة دائمة بين الجنود الحقيقيين والسان كيلوت المرسلين من باريس لقيادتهم(٥). ويجد كليبر نفسه عدة مرات عرضة للاعتقال ومن ثم عرضة للإعدام.

على أنه سوف يثبت مواهبه العسكرية الكبيرة؛ وسوف يكون مسئولاً هو والشاب مارسو، صديقه وتقريباً ابنه من الناحية الأدبية، عن هزيمة الفانديين. وبالرغم من أوامر الإبادة التي أصدرها المؤتمر، فإنه يحاول أن يكون رحيماً قدر الإمكان، لكن ممثلي المؤتمر الموفدين يقظون (خاصة كارييه الرهيب).

وتسيء الجمهورية مكافأة كليبر وذلك بسبب صراحته في مواجهة الأوامر الرعناء التي يصدرها جنرالات هواة تجر "جماعة ماينس" إلى مذبحة، وفي مواجهة ديماجوجية المندوبين الموفدين، وفي مواجهة الجنون الدموي لهذا الطرف أو ذاك. وسوف يطبق هوش فيما بعد خطته الخاصة بالتهدئة.

لكن كليبر يتحمل أيضا نصيبه من المسئولية، كما يلاحظ ذلك جارا:

"أما أخطاء كليبر، لأنه ارتكب أخطاء، فسوف أذكرها، وسوف أبدأ بها. لقد كان كليبر مهيئاً، بحكم طبعه، لأن يحكم حكماً قاسياً على السلطات التي كان يتقبل أوامرها من باب الطاعة: وأحكامه الصارمة من حيث عدالتها، كانت لاذعة من حيث شكلها وتعبيره عنها. ومداهنة السلطة هي دائماً جريمة، وهي جريمة يرتكبها الجبناء؛ أما جرحها دون ضرورة بالنسبة للشأن العام، أو بعيداً عن هذه الضرورة، فهو خطأ ترتكبه النفوس المفرطة الكبرياء؛ وقد كان هذا الخطأ في أغلب الأحوال هو الخطأ الذي ارتكبه كليبر"[٦].

وبعد هذه الحرب التي كانت خسائر الجمهوريين فيها أعلى بكثير جداً من خسائر ثلاثة أعوام للحملة الفرنسية على مصر، يجري تعيين كليبر قائد فرقة في جيش السامبر والميز تحت قيادة جوردان، بعد أقل من عام من استسلام ماينس. وفي هذه المناصب العسكرية الجديدة، ينقاد إلى معارضة سان جوست، ولكن دون طائل[٧]. وفي أواخر عام ١٧٩٤، يقود بدوره حصار ماينس التي تسيطر عليها قوات الائتلاف، وهي عملية يعتبرها عديمة الجدوى وعبثية وسوف تكلف الجيوش الفرنسية ثمناً فادحاً[٨].

وبعد استدعائه إلى جيش السامبر والميز بعد فشل الحصار، يصبح المسئول الرئيسي فيه بعد جوردان، وسوف ينوب عن الأخير

في منصبه عدة مرات. كما أنه يتسنى له قيـادة عمليـات تجمـع عـدة فرق. وهكذا يتعلم قيادة كتل بشرية مـن عـدة عشـرات مـن آلاف الرجال، وهي مقاييس عادية للجيوش في العصـر الثـوري. كمـا أنـه ينتصر في عدة مواجهات ومعارك مهمـة.

على أنه يفكر، منذ أواخر عـام ١٧٩٥، في التنحـي، احتجاجـاً على الحالة التي تترك فيها السـلطات المدنيـة الجنـدي. ورسـالته إلى جوردان، المرسلة من كوبلنـز، والمؤرخـة في ١١ديسـمبر ١٧٩٥، إنما تشهد على مراعاته وحبه للجندي العـادي جـداً:

"أرفق لك مع هذه الرسالة، رفيقي العزيز، نسـخة مـن الرسـالة التي كتبها وأرسلها إليّ مفوض شئون الحرب شـابوتو. والصـورة الـتي ترسمها هذه الرسالة ليست مبالغة البتـة؛ إلاّ أنـه صحيـح أنـه إذا لم يمون سلاح الفرسان نفسه عن طريق مصادرات يقوم بها هـو بنفسـه، فإنه لا إدارة الناحية ولا إدارة الجيش سـوف تكونـان قـادرتين علـى إمداده بالغذاء. ومن جهة أخـرى، فـإن هـذا الإجـراء إنمـا يـهدد بالقضاء في عدة أيام قليلة على إمكانات العيش التي من شـأن اقتصـاد حكيم إطالة أمدها، ومن ثم فإن حالة مـوارد هـذا البلـد هـي مـن التدهور اليوم بحيث أجد نفسي ملزماً بأن أقول لـك إنـه، في غضـون عشرين يوماً، لن تكون هناك بعـدُ قشـة تـبن واحـدة ولا حشيشـة واحدة للجياد. إن الأزمـة عظيمـة، ولا أرى أن هنـاك مـن يحـاول تقديم علاج لها. وقد دفعتني هـذه الفكـرة إلى إرسـال اسـتقالتي إلى وزير الحربية؛ على أنه لم يقبلها. وبالرغم من ذلـك، لا يمكنـني إخفـاء أنني عازم دائماً على الاستقالة. وأنت تعرفني جيـداً بحيـث لا يمكنـك أن تظن أن ما يدفعني إلى ذلك هـو تهديـدات وتحركـات العـدو؛ إن القرف وحده، الذي أتجرعه عن آخره، هو الذي أملـى هـذا القـرار. والبارحة أيضاً، بينما كنت أقوم بجولة تفقديـة، وجـدت عنـد أحـد مواقع المدخل، ضابطاً يرتدي أسمالاً وطاقية ملوثـة بالشـحم. فسـألته

ما إذا لم تكن عنده برنيطة، فأجابني بأن جميع مهماته قد احترقت في المعسكر من جراء حادثة، وأنه لا يحوز إمكانات نقدية لتعويضها. وقد طلبت حضوره إليّ هذا الصباح وأعطيته برنيطة وكل ما كان بوسعي إضافته إليها. والحال أن ألفاً آخرين يجدون أنفسهم في هذه الحالة نفسها. إلاّ أنه على الضباط، على مظهرهم، على استقلالهم العسكري وعلى المراعاة التي تبديها الحكومة تجاههم، إنما يتوقف الانضباط، وعلى هذا الانضباط يتوقف مصير الجيش. والحكومة لا تود أن تدرك ذلك بالمرة، فمؤخراً أيضاً، حطت من شأنهم بالإنعام عليهم بزوج جزمة. ومن ثم فإن قلوبهم مجروحة، إلى درجة أنهم يحفزون هم أنفسهم تثبيط الهمم. إنني أكتب ذلك بيني وبينك؛ إلاّ أنه يبدو أنه بعد الخدمات المهمة التي قَدَّمْتَهَا إلى وطننا، فإن أهم مايمكنك تقديمه إليه أيضا هو أن تفتح الأعين على وضعنا الحالي. والحال أن التدابير الصغيرة التي تشير إليها تعميمات وزير الحربية ليست غير مسكنات بائسة، لا يمكننا أن نأمل البتة منها خيراً"[٩].

على أن كليبر يسحب استقالته ويشارك في حملة ألمانيا الشهيرة في عام ١٧٩٦. وكانت خطة كارنو ترتأي تحركاً متوازياً لجيش السامبر والميز تحت قيادة جوردان ولجيش الراين وموزيل تحت قيادة مورو، من الولايات الرينانية إلى النمسا. وكان على بونابرت مع جيش حملة إيطاليا أن يشل حركة أكبر عدد من القوات المعادية. وكان العيب الرئيسي لهذه الخطة هو انعدام تركيز القوات الفرنسية في ألمانيا وغياب القيادة الموحدة. وهكذا فإن الجنرالات يتغلغلون في ألمانيا حتى بافاريا دون أن يتمكنوا من تنسيق تحركاتهم. وفي المقابل، فإن بوسع خصمهم، الأرشيدوق تشارلز، أن يوجه ضرباته بشكل تناوبي ضد هذا الجيش أو ذاك من الجيشين الفرنسيين. ولذا يضطر هذان الجيشان، في النصف الثاني من العام،

إلى الانسحاب عبر الراين، وهو انسحاب يعتبر من جهة أخرى نموذجاً نوعياً في التاريخ العسكري.

ويرجع فشل هذه الحملة أساساً إلى إذعان الجنرالات الفرنسيين لأوامر حكومة الإدارة. أمَّا في ايطاليا، فإن بونابرت يبدي مهارة في تركيز وحشد القوات وعندما يود كارنو أن يفرض عليه فصلاً لقواته، فإنه يرفض ذلك ويهدد بالاستقالة، مجبراً حكومة الإدارة على النزول على إرادة الفاتح الشاب. وهكذا يفوز بونابرت باستقلالية في القيادة غير معروفة في ألمانيا.

وطبيعي أن حكومة الإدارة تلقي بمسئولية الفشل على الجنرالات ويتم استدعاء جوردان. ويمارس كليبر من جديد مهام النيابة ويحاول إعادة بناء جيش قوي. وهو يحمل الممونين والسلطة السياسية نفسها المسئولية عن الحالة الكارثية لعتاد ولملابس جيش السامبر والميز. وعندما تقترح عليه حكومة الإدارة أن يخلف جوردان بشكل نهائي، فإنه يرفض ذلك مشيراً عندئذ إلى عدم قدرته (١٧ أكتوبر ١٧٩٦):

"بما أنني مسكون بحب بلادي حباً بالغ الحماسة، ومستعد لأن أبذل في سبيلها آخر قطرة من دمي، فإن هناك تضحية واحدة أشعر بالعجز عن تقديمها لها في أي وقت من الأوقات، إلاّ وهي تعريض مصالحها للخطر بقبول موقع لا أجدني قادراً على الوفاء بمهامه على أكمل وجه. فموقع القائد العام يتطلب رجلاً يجمع إلى مواهب قائد محنك مواهب إداري ممتاز، بل وفي الظروف الحالية، عبقرية خلاقة. وما أنا إلاّ جندي.

"ولكي يضع المرء في العمليات هذه الجسارة، هذه الشجاعة، التي تقود أحياناً إلى النجاح، يكفي للمرء أن يكون مخلصاً في أداء واجباته؛ إلاّ أنه لكي يتسنى له أن يجمع وأن ينسق فعل كل العناصر التي من شأنها أن تجعله شبه معصوم من ارتكاب الخطأ، لابد له من

أن يكون إنساناً عظيماً، إنساناً ميزته الطبيعة بالفعل؛ فهنا، لا يمكن للعزيمة الأكثر وضوحاً ولا لجهود الفعل الأكثر إصراراً أن تقوم مقام ما امتنعت (الطبيعة.. – المترجم) عن تقديمه للمرء.

"والاعتبارات التي حالت دائماً دون تجاوبي، في أوقات أخري، مع أمارة الثقة هذه نفسها، ماتزال قائمة؛ إن أفعالي وكلماتي كانت وسوف تظل دائماً واحدة. والمسئولية الشخصية قلما تخيفني؛ فما الذي يمكن أن يخيف إنساناً قدم لوطنه كل التضحيات التي يطلبها؟ إن ناصحي الأول، وهو الناصح الذي أخشى عقابه دون سواه، هو شعوري (بحدود. – المترجم) قواي الخاصة، هو ضميري. وليس بوسعى تحديه دون أن ينزل بي العقاب. وهو يأمرني بأن لا أعرِّض للخطر مصالح الجمهورية بقبول موقع يتطلب إمكانات أعلى من إمكاناتي.

"إنني أذعن لصوته، ومهما حدث، لن أتنكر له. ولا يسعني أن أكون أكثر جدارة بلفتاتكم السخية وعند ظنونكم الحسنة، أيها المواطنون المدراء، إلاّ إذا تمكنت أنا نفسي من وضع حدود لها، راجياً منكم الاعتراف بالحدود التي حكمت عليَّ بها الطبيعة وبأن خير بلادي لا يسمح لي البتة بتجاوز هذه الحدود"[١٠].

وفي هذا النص الذي يعبر فيه كليبر عن رفضه لموقع الصدارة[١١]، فإنه يقدم أسس موقفه التالي تجاه بونابرت. فهذا الموقف يتكون في آن واحد من شعور زائد عن الحد بحدوده هو الخاصة – وقد رأينا، علي أية حال، أنه كان يملك جميع القدرات الضرورية لأداء هذه الوظيفة – ومن افتتان حقيقي في الوقت نفسه بالعبقرية الخلاقة، بالرجل العظيم الذي ميزته الطبيعة، وهي أسطورة مشوشة يحملها العصر في وجدانه كثقل مضاد وكتتمة مكملة للجفاف النقدي للتنوير[١٢]. لكنه يطرح بالفعل صوت ضميره في مواجهة البطل.

ولئن كان يرفض من ثم موقع الصدارة لكي يتخذ في واقع الأمر

موقع المراقب والناقد، فلعل الهدف من ذلك أن يكون ضمانة للحدود التي لا يجب تخطيها. وهذا ما يوضحه جيداً جارا، في مقارنته بين ديزيه وكليبر، المقاتلين اللذين لقيا مصرعهما في يوم واحد:

"لم يغفر كليبر قط أخطاء أولئك الذين تتسبب أخطاؤهم في شقاء الناس: وقد بدا أنه يؤمن بأن من الواجب دائماً أن توجد إلى جانب السلطة الضخمة معارضة متململة وأن توجد إلى جانب التملقات سخريات، وحتى في ظل حكم ملكي، كان كليبر سيتحلى بهذه الشجاعة، جد النادرة، في مواجهة العروش، والتي تتمثل في الاجتراء، لأجل الحقيقة، على السلطة التي يعتمد عليها في تحقيق مجده وسعده؛ وكانت لدى ديزيه الشجاعة، ربما الأكثر ندرة بكثير في الجمهوريات الوليدة، والتي تتمثل في مراعاة ومساعدة السلطة عندما لا يبذل المرء شيئاً من أجلها ويبذل كل شيء من أجل الوطن. والحال أنه لا الأول ولا الثاني قد أبديا قط في فرنسا طموحاً إلى الموقع الأول أو إلى الدور الأول: ولو كانت أحداث الثورة قد حملتهما إلى مثل هذا الموقع، لأبقتهما مواهبهما فيه فائزين بالمجد؛ لكن ديزيه كان سيهبط منه مسروراً، لكي يخدم الوطن في تواضع تحت قيادة من يعتبره الأقدر، أما كليبر، فكان من شأنه أن يهبط منه بنفاد صبر أكبر، لكي يحتل المرتبة الثانية، نداً من حيث مواهبه وقاضياً بحكم ما سيصدر عنه من توبيخات، لذلك الذي كان من شأنه أن يتصدر القيادة(١٣)".

ومنسجماً مع نفسه، يستقيل كليبر من الجيش ويستقر في باريس، على تل شايو، في أبريل ١٧٩٧. وموقفه غير واضح في لحظة يمر فيها النظام الجمهوري بأزمة عميقة. فمن جهة، في ايطاليا، ينتصر بونابرت ويبدو أنه يحقق السلم، ومن جهة أخرى، في باريس، يتصاعد التوتر بين السلطة التنفيذية، حكومة الإدارة، والسلطة التشريعية، الجمعيتين المنبثقتين عن دستور ١٧٩٥، واللتين

يحوز الأغلبية فيهما، منذ الانتخابات الأخيرة، خصوم غالبية أعضاء حكومة الإدارة.

والحال أن التعايش المهتز بين السلطتين إنما يصبح مستحيلاً من الناحية العملية منذ اللحظة التي تعمل فيها المجالس التي يهيمن عليها التحالف بين الملكيين (الكليشيين) والدستوريين (الذين يتمنون احترام إرادة الناخبين) على زيادة العقبات التشريعية في وجه قرارات المدراء سعياً إلى جعل ممارستهم لسلطتهم مستحيلة.

وهؤلاء الأخيرون لا يجدون ملاذاً آخر غير استدعاء الجيش للتخلص من خصومهم. ويجري التفكير في البداية في هوش الذي تولى قيادة جيش السامبر والميز بعد اعتذار كليبر، إلاّ أنه يتصرف بمزيد من العجلة إذ يرسل قوات إلى مشارف باريس. وتصبح الفضيحة مدوية بحيث إنه يضطر إلى التراجع بشكل يدعو إلى الرثاء.

ولا يبقى من ثم غير بونابرت وجيش ايطاليا، لأن مورو المرابط على الراين يبدو أنه يتخذ موقف ترقب خطير يراعي الملكيين كما يراعي المدراء. ويرسل فاتح ايطاليا أوجيرو إلى باريس لتنفيذ المهمة. وسوف يحدث ذلك في ١٨ فروكتيدور (٥سبتمبر ١٧٩٧): فالجيش يحتل باريس ويتم إلقاء القبض على المعارضين بينما يهرب آخرون. وهو ما يعني في واقع الأمر الاعتراف بفشل الجمهورية كنظام نيابي مادامت نتيجة الانتخابات قد ألغيت.

وفي هذا الوضع السياسي، كان موقف كليبر أقرب إلى موقف مورو مما إلى موقف هوش وبونابرت. ولا يمكن للفصائل المختلفة أن تتجاهل وجود جنرال مهيب كهذا في باريس. وانتقاداته للحكومة التي يحملها المسئولية عن خيبات حملة ألمانيا وعن معاناة الجنود مشهورة على المستوى العام. إلاّ أنه من المعروف أيضاً أنه جمهوري مخلص ومن ثم يعادي الدسائس الملكية في

المجالس. ولما كان لا يعرف ما الموقف الذي يجب عليه اتخاذه، فسوف يراعي جميع المواقف، مع رفضه الانتقال إلى الفعل.

ووفقاً لأقوال باجول، ابن أحد رفاق كليبر، يستفاد أن هذا الأخير قد رد على عروض حكومة الإدارة:

"سوف أطلق النار على أعدائكم؛ ولكنني في الوقت الذي أواجههم فيه، سأدير ظهري لكم(١٤)".

وهكذا يمكننا أن نفهم اتجاه حكومة الإدارة إلى إيثار التوجه إلى أوجيرو. ويقدم لنا تيبودو، زعيمُ الدستوريين، كليبرَ في صورة مناوئ عميق العداوة للملكيين كما لحكومة الإدارة:

"تناولت العشاء في السادس من فروكتيدور عند وزير الحربية (شيرير) مع برنادوت وكليبر؛ كانوا غاضبين على مجلس الخمسمائة؛ وقد قالوا إنهم رأوا، في الصحف المرسلة إلى الجيش، أن الجنرالات قد عوملوا من على المنبر كمجرمين وكقطاع طرق؛ وهم يرون أنه ما من خلاص إلاّ في قيام حكم عسكري. وبعد العشاء، تحدثت بشكل خاص مع كل واحد منهم. وقد بدا لي أن كليبر لا يولي أهمية كبيرة لحكومة الإدارة ولا يثق بالمرة في بونابرت، لكنه يهتم بالحياة وبالموت في سبيل الجمهورية، وأنه مستعد بحكم هذا الدافع لمحاربة الملكيين.(١٥)".

إلاّ أنه في مقابل هاتين الشهادتين، يجب أن نورد شهادة ماتيو ديوما، أحد محركي المعارضة الملكية في المجالس:

"لم أتقاسم وهم أولئك الأشخاص من زملائي الذين كانوا يهنئون أنفسهم بالعثور على سند في الحرس الوطني وفي جمهور المواطنين. لقد كانوا يقولون إنه لا يلزم غير زعيم من أجل تفجير انتفاضة كبرى: لكنهم نسوا المحنة الرهيبة لعصر الإرهاب. وكنت أعرف على وجه اليقين النتائج التي تترتب على ترك السلطة في أيدي فصيل تسيء إليه تجاوزاته الخاصة. وكنت أعرف أنه لا يمكن

شن ثورة ضد حكومة قائمة، حتى ولو كانت أكثر الحكومات ظلماً وقهراً، إلاّ بالاستناد إلى ذريعة شرعية وإلى مرجعيات يعترف بها الشعب. عندئذ فقط تنقسم القوى المادية: إن حشد البشر المترددين أو اللامبالين إنما يضخم حجم الجمهور ويعطي لذراع الرافعة كل القوة اللازمة للإثارة وللإطاحة. (...) والحال أن واحدا من أفضل جنرالات جيوشنا، وهو جنرال كان من شأن شخصيته وشجاعته وعقليته أن تجعله مناسباً إلى أقصى حد لمثل هذا المشروع، أعني كليبر، كان موجوداً آنذاك في باريس. ولم تكن حكومة الإدارة تستخدمه البتة وكان معتكفاً في بيت ريفي في شايو (...) وقد طلب رؤيتي؛ وزرته.

"قال لي: هل لديكم وسائل ما للمقاومة؟"

"فقلت: ليست لدينا أية وسيلة من شأنها أن تمنح الرجل الأكثر جسارة الثقة في الاضطلاع بشيء مع فرصة معينة في النجاح.

"فأردف كليبر: لو كنتم فقط واثقين من حرسكم ومن بعض كتائب الحرس الوطني، على نحو ما كانت عليه في ١٣ فانديميير، فإن أوجيرو وفرقته لن يقفا في وجهي؛ ومن المرجح تماماً أنه بمجرد الانخراط في الأمر، فإن المدفعية، التي تدين قيادتها بالولاء التام لي، سوف تنتقل إلى جانبي.

"أطلعت الجنرال كليبر على قوام وتركيب الحرس الذي كان آنذاك أكثر من شبه مدرب. وكان عليَّ أن أرفض، باسم زملائي، عروضه السخية، وأن أتخلى عن البحث العبثي عن مقاومة مسلحة، ليس من شأنها إلاّ أن تبرر عدوان حكومة الإدارة[١٦]".

وليس وجود برنادوت بريئاً. لقد أرسله بونابرت لرصد الموقف السياسي، وخاصة رأي الجيش. وهو يوفر لفاتح ايطاليا شبكة علاقاته مع القادة العسكريين للجيوش الأخرى. وهو صديق لكليبر. ومن ثم فسوف يلعب دور الوسيط بينه وبين بونابرت.

وحكمه مؤكد فيما يتعلق برغبات كليبر الفعلية: "ثلاثة من الجنرالات مرشحون لقيادة حرس مجلس الخمسمائة؛ أولهم كليبر وثانيهم ديزيه والثالث سيروريه. وقد أحس الجميع بأن مثل هذه القيادة لا يمكن أن تكون مصدر فرح لأي من هؤلاء الجنرالات الثلاثة. وقد قال كل واحد كلمته، والتفكير الأخير هو ما يلي: هؤلاء الرجال الثلاثة لهم سمعة ممتازة، وفي حركة ما سوف يكونون مفيدين في أن يحشدوا حول الجهاز التشريعي عدداً كبيراً من الجنود والضباط من الجيوش التي خدموا فيها؛ لكن كليبر لن يقبل، فهو جمهوري بحكم نظرته الفلسفية إلى الأمور، وهو يسخر من حرج البعض ومن رعونة البعض الآخر. إلاَّ أنه لو حدث الزلزال في أي وقت، فإن كليبر سوف يطل برأسه من النافذة لكي يراقب الفريقين، وسوف ينخرط في مسيرة الشرائط الثلاثية الألوان؛ وهو يتمنى أن يرى ساحات مجدك؛ وسوف أجيء به معي، وسوف يسعد بالتعرف على الرجل الذي احترَمَ غالباً مآثره السامية، في قيادة الجيوش، والأكثر من ذلك في قيادة أعنة الحكم"[١٧].

وقد أدي حادث ١٨ فروكتيدور إلى إبعاد كليبر نهائياً عن نظام حكومة الإدارة. وهو يتعرض للمضايقات بسبب تردداته وتحركاته غير الملائمة. والأخطر من ذلك أنه يتعرض لوشاية من جانب هوش، قائد جيش السامبر والميز. ففي ١٣ سبتمبر ١٧٩٧، يكتب هوش إلى حكومة الإدارة:

"يُملي عليَّ واجبي أن أحدثكم عن واحد من أخطر أعداء حكومة الإدارة، وهو على قرب منها. لقد توصل كليبر إلى أن يجر إلى حزب بيشجرو، صديقه الحميم، عدداً كبيراً من الرجال المعجبين بمواهبه. ويؤسفني أنني لديّ البرهان على أنه قد أغوى، بأقواله وبوعوده الكريهة، عدداً من الضباط أذكر من بينهم (...) داماس (...) وآخرين. كما أنني أعتقد أن حكومة الإدارة لن يكون

بوسعها أن تتحمل طويلاً وجود هذا الرجل على قرب منها وأنها سوف تضع بحزمها حداً لهذيانات بعض الأشخاص المنحلين الذين يمكن لكلمة واحدة أن تجعلهم هباء منثوراً إلى الأبد[١٨]".

ومن حسن حظ كليبر، أن هوش يموت في ١٩ سبتمبر ١٧٩٧ وأن حكومة الإدارة ترفض برنامجه الداعي إلى إجراء حركة تطهير بين صفوف العسكريين. ولو كانت وشاية هوش قد نجحت، لكان معنى ذلك أن يذهب كليبر إلى "المقصلة التي لا تريق دما"، أي أن يجري ترحيله إلى جوايانا. وهو يستعد للمقاومة بالسلاح[١٩] لكن القمع يقتصر على السياسيين.

أما مورو، الذي أُعفي من قيادته بسبب موقفه المريب (إنه يحتفظ حتى الانقلاب ببراهين خيانة بيشجرو، وسوف تكون جد مفيدة للسلطة التنفيذية في تبرير انتهاك المؤسسات)، فإنه يعتكف في شايو مع كليبر. وإذ يسود السلم في القارة، فإنه يؤدي إلى عودة كثيرين من قدامى جيوش الشمال والشرق مثل جوردان وكافاريللي، وتتشكل جماعة صغيرة حول الجنرالات تناقش فيها المسائل العسكرية والوضع السياسي.

وهو يرى أن الجمهورية قد فشلت، ليس من حيث مبادئها، وإنما بسبب الرجال الذين يحكمونها[٢٠]. ومن ثم فإنه يجد نفسه في هذا التباعد عن الحكومة عندما يلتقي – للمرة الأولى – مع بونابرت الذي كان برنادوت قد أشاد له إشادة حارة بالبطل الألزاسي.

حواشي الفصل الأول

١- السير الأساسية لكليبر هي: ايرنـــوف، **الجنرال كليـــبر**، بـــاريس، ١٨٦٧؛ بوجال، **كليبر. حياتـــه. مراســـلاته**، بـــاريس، ١٨٧٧؛ جارســـو، **كليـــبر**، باريس، ١٩٣٦؛ لوكـــا – دوبريتـــون، **كليـــبر**، بـــاريس، ١٩٣٧؛ وتوجـــد بيبليوجرافيا تفصيلية في كليبر، ابن الألزاس، **تحية جماعيـــة بمناســـبة الذكـــرى المئوية الثانية**، بـــاريس، ١٩٥٢.

٢- لوبير ديريكور، **حياة الجنرال كليـــبر**، بـــاريس، ١٨٠١.

٣- لوكا – دوبريتون، **مصدر ســـبق ذكـــره**، ص ٢٣٥.

٤- "وعندما أحسن الاستبداد اختيار الحرب التي تناســـب هـــذا البلـــد والأدوات التي تناسب هذه الحـــرب فـــإن الجمهوريـــة، أو أولئـــك الذيـــن يحكمونهـــا، لكونهم كان عليهم أن يقاتلوا التعصب الديني، لم يريـــدوا أن يعـــهدوا بقيـــادة هذه الحرب إلاّ إلى التعصب للحرية. وقد جـــهلوا أنـــه إذا كـــانت الخرافـــات إنما تنتشر وتنتصر بالتعصب، فإن التعصـــب ليـــس مـــن شـــأنه إلاّ أن يشـــوه ويعرض للخطر حرية قائمة على العقل ولا يجب لهـــا أن تدافـــع عـــن نفســـها إلاّ بالمواهب وبالفضائل". جارا، **كلمة تـــأبين للجـــنرالين كليـــبر وديزيـــه ألقيت في الأول من فانديمير من العـــام التاســـع، في ســـاحة الانتصـــارات**، باريس، برومير من العام التاســـع، ص١٧.

٥- "إن العسكريين الذين هم عسكريون بشكل خـــاص لم يحصلـــوا في الفانديـــه إلاّ على ثقة مرتبكة دائماً، ودائماً على حافـــة ســـحبها وتحويلـــها إلى اتهـــام: وقد أرسل إلى هناك عدة مرات، برتبـــة وبســـلطة القـــائد العـــام، رجـــالٌ لم تكن لهم قط أية رتبة عسكرية قبل أن تكون لهم الرتبـــة الـــتي تتصـــدر كـــل الرتب، جرى إبراز اسمائهم الغريبة على الجيـــوش في اللجـــان وفي المجتمعـــات العسكرية التي تشمل هؤلاء الجنرالات الوطنيين أخيراً الذيـــن كـــانوا يريـــدون دائما القضاء على المتمردين ولم يتمكنـــوا قـــط مـــن إلحـــاق الهزيمـــة بهـــم" (المصدر الســـابق، ص٧).

٦- **المصدر الســـابق**، ص٢٤.

٧- "في ليلة ٢٥- ٢٦ مايو، عقد النـــواب ســـان جوســت ولوبـــا ولوفاســـور مجلساً حربياً في قيادة توان العامة. كان الجيـــش شـــبه مفكـــك؛ والحـــال أن الجنود الذين بلا ثياب وبلا أحذية، والذين أضناهم التعـــب والجـــوع، كـــانوا بحاجة إلى الراحة؛ ومن جهـــة أخـــرى، كـــانت هنـــاك حاجـــة إلى وقـــت لتعويض العتاد الذي ضاع في الهزائم الأخيرة. وقـــد أجمـــع الجـــنرالات علـــى التمسك بموقف دفاعي لمدة عدة أيام، عندمـــا قـــام ســـان جوســـت، الـــذي رأس هذا المجلس، والذي لم يصغ البتة لجميع تحذيراتهـــم ولا لحجـــج كليـــبر، بإنهاء المناقشات، قائلاً بصـــوت عـــال: "لابـــد مـــن احـــراز انتصـــار غـــداً للجمهورية؛ فلتختاروا بين حصار وخوض معركـــة". ومـــن ثم فقـــد جـــرى اتخاذ قرار بالعبور الثالث لجيش السامبر: والحـــال أن هـــذه العزيمـــة، الجديـــرة بالثناء في ظرف مختلف تماماً، قد انحطت إلى خطـــأ جســـيم، لأنـــه لم يكـــن هناك شك في أن من الأكثر حكمة انتظار وصول الجـــنرال جـــوردان الـــذي كان يتحرك عبر الدينان مع جيش موزيل: ومـــن ثم كـــان بالإمكـــان تجنـــب التعرض من جديد لانتكاسات كان من شأنها أن تجـــر إلى عواقـــب وخيمـــة، لو كان العدو قد أحسن الاســـتفادة منـــها" (جوميـــني، **التـــاريخ النقـــدي والعسكري لحروب الثورة**، بروكســـل، ١٨٤٠، المجلـــد ٢، ص٣٢).

ويرى الشارح العسكري الكبير أن كليبر "يمكن اعتباره واحـــداً مـــن أفضـــل جنرالات الثورة؛ ونحن لا نتردد في وضعه بعـــد بونـــابرت ومـــورو مباشـــرة" (المجلـــد٢، ص٢٢).

٨- "إنني لن أطمس المجد الذي أحرزه الجنود بالتحمل وبالشـــجاعة الـــتي تحملـــوا بها المهام والحرمانات خلال أقسى شتاء في هذا القرن. إن ربـــع رجـــال قـــوة الحصار كانوا في المستشفيات بصورة متصلـــة، وقـــد هلـــك النصـــف مـــن البؤس ومن البرد، وهي نتائج مؤسفة للفوضى التي ســـادت آنـــذاك في جميـــع أجزاء الإدارة". (**المصدر الســـابق**، المجلـــد٢، ص١٢٩).

٩- باجول، **مصدر ســـبق ذكـــره**، ص ص ١٩٦ – ١٩٧.

١٠- **المصدر السابق**، ص٢٤٦. يواصل كليبر شارحاً وضع الجيش. "إن انتكاساته لا يمكن أن تُرد إلى المعارك التي خاضها، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله الرجل العاري والجائع حتى وإن كان الأكثر شجاعة؟ عندما يرى الجندي أن الحكومة مهتمة بمساعدته، وأن هناك مايمكنه مساعدته على الاحتماء من تقلبات الفصول، وأن الإمدادات الغذائية مؤمنة ولو جزئياً؛ عندئذ، أيها المواطنون المدراء، سرعان ما سوف تجد الجمهورية انتصارات جديدة تحتفل بها. إن جنود السامبر والميز مازالوا هم عين الجنود الذين طردوا النمساويين من بلجيكا وطاردوهم حتى حدود بوهيميا. ولاعتزازهم بأنفسهم وبالقضية التي يدافعون عنها، فإن أبناء الثورة هؤلاء سوف يكونون دائماً أرسخ سند لها.

"وقد ترتب عدم الانضباط والعصيانُ على غياب توزيع الأدوار، وعلى عدم وجود أي نوع من التنظيم بعد في الخدمات. وهذه الجرائم وكل الجرائم التي ترتبت عليها سوف تختفي مع اختفاء السبب الذي أنتجها. وبمجرد إصلاح هذه العيوب، سوف نستأنف الهجوم؛ سوف نهاجم العدو حيثما لقيناه وسوف يتوج النصر من جديد جهودنا، النصر الذي كان حليفاً منذ وقت طويل جداً لجيوشنا. وليس بوسع القوى التي تقف في وجهنا أن تفرض نصراً علينا ؛ وبمجرد ما أن يتسنى لنا حشد بعض وسائط النقل، وبمجرد ما أن يكف الجندي عن الخوف من الجوع ومن البرد، سوف نتجه إلي دعم الانتصارات الرائعة لجيش الراين وموزيل، والمشاركة في الأحداث التي لابد لها من أن تجيء لنا بالسلم الجيد، السلم الذي من شأنه أن يسمح لنا بأن نجني ثمرة الجهود المبذولة للحصول عليه"(ص ٢٤٧).

١١- مؤخراً أيضاً وجه جورج لوفافر لوماً إلي موقف كليبر: "من الغريب أن نرى في العام الثاني أن جنرالاً يسمح لنفسه بمثل هذه الإساءة أمام العدو". **فرنسا في ظل حكومة الإدارة**، باريس، ١٩٧٧، ص ٢٧٠. وبوجه عام، فإن التراث الجمهوري لا يقدر شخصية كليبر إلاّ بدرجة متوسطة.

والمثال الأحسن على ذلك هو لاروس في معجمه: **المعجم الشامل الكبير للقرن التاسع عشر**: "مما لا جدال فيه أن كليبر كان جنرالاً ذكياً وشجاعاً. ولا يمكن الشك لا في شجاعته ولا في سمو نفسه ولا في نزاهته التامة. فما الذي كان ينقص مجده؟ لماذا، مثلاً، نتردد في وضع اسمه إلى جانب اسم هوش، منافسه الشهير؟ نحن لا نعتقد أن هذه المكانة الأدنى ترجع إلى الغيرة البائسة إلى حد ما والتي كانت تكمن في قلب هذه الشخصية العظيمة، لكنه كان يفتقر إلى تلك النار المقدسة، تلك الوطنية السامية، ولنقل، تلك النزعة الجمهورية المتحمسة، التي ألهمت كل أعمال هوش وملأت حياته. لقد كان كليبر يقاتل من أجل المجد، ومن أجل البلد إن شئتم، لكنه لم يقاتل قط من أجل مبدأ. وهذا هو الذي شكل خواء عمله، وعاد عليه بهذه المهانة، غير المبررة من جهة أخرى، والتي تتمثل في التكريم الذي رأى ملك يحكم بالحق الإلهي أن من واجبه منحه لرفاته. والحال أن رفات الجمهوريين والعظماء هي في مأمن من هذه الإهانة الأخيرة (المجلد٩، الجزء٢، كليبر، ص ١٢٢٣).

١٢- حول هذه المسألة، انظر كتابي: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا من عام ١٦٩٨ إلى عام ١٧٩٨**، دار نشر إيزيس، استنبول — باريس، ١٩٨٧.

١٣- جارا، ص ص ٥٦ —٥٧.

١٤- باجول، ص ٢٦٥.

١٥- ا. س. تيبودو، **مذكرات حول المؤتمر وحكومة الإدارة**، باريس، ١٨٢٤، المجلد ٢، ص ٢٥٧. من المرجح أنه يستبق ما سوف يؤول إليه موقف كليبر تجاه بونابرت.

١٦- ماتيو ديوما، **ذكريات**، باريس، ١٨٣٩، المجلد ٣، ص ص ١١٤ — ١١٦. يحدث المشهد في ١٦ فروكتيدور.

١٧- **مراسلات لم يسبق نشرها لنابوليون بونابرت مع البلاطات الأجنبية والأمراء والوزراء والجنرالات الفرنسيين في الخارج**، باريس، دار بانكوك، ١٨١٩،

المجلد٥، ص ١١٦. سوف تتاح لي الفرصة للاستشهاد كثيراً بهذه الطبعة مشيراً إليها بالحرف ب. وهي تطرح عدة مشكلات تتعلق بصحة رسائل كهذه الرسالة حيثما لا تظهر الأصول في الأرشيفات، إلاّ أنه حيثما توجد أصول فإن النقل يجري بشكل أمين عموماً.

١٨- رسالة نشرها أندريه روكروا في: **أوراق التاريخ**، باريس، ١٩١١، المجلد ٦، ص ص ٣٣٠ – ٣٣١. وحول المسألة برمتها، تظل هناك أهمية أساسية لعمل البير سوريل: **بونابرت وهوش في عام ١٧٩٧**، باريس، ١٨٩٦، وكذلك للمجلد الخامس، **بونابرت وحكومة الإدارة**، من مشروعه الضخم، **أوروبا والثورة الفرنسية**. والحال أن روبير جارنييه، في كتابه الذي صدر مؤخراً، **لازار هوش أو شرف السلاح**، باريس، بايو، ١٩٨٦، إنما يسكت تماما عن وشايات هوش بعد ١٨ فروكتيدور بينما يورد كتاب البير سوريل في قائمة مراجعه.

١٩- لوبير ديريكور، ص ١٢٠: "لقد كان كليبر يتمتع بجدارة عالية، وكان يتميز بطابع بالغ الصراحة بحيث يتعذر أن لا يبدو مصدر خطر في نظر من يعدون قوائم النفي. ويقال إنه كان على قائمة الهالكين، إلاّ أن بقية من الحياء، من مؤاخذة الضمير ربما، بالرغم من أن هذا لم يكن وارداً، قد أدت إلي شطب اسمه (...). ومن المؤكد أنه ما كان ليسقط حياً بين أيدي المستبدين، فمن المؤكد أنه كان سوف يهلك، لكنه كان سوف يسبق ذلك بارتكاب مذبحة كبرى في صفوف أولئك الذين يجدون الجرأة على المساس به (...). وقد قال إن موتي عندئذ بهذا الشكل سوف يكون، على الأقل، مفيداً، فمن المؤكد أنه سوف يخلص وطني من بعض المجرمين".

٢٠- **المصدر السابق**، ص ص ١٢٣ – ١٢٥: "لقد كانوا الشهود الحادئين على الأسلوب الذي استخدمت به حكومة الإدارة الانتصار الذي أحرزته للتو. ولكن ما أطول تألمهم وهم يرون وطنهم الذي كابدوا في سبيله الكثير من المخاطر والذي عرضوا أرواحهم للموت في سبيله مراراً، وقد سقط في أيدي الهوس الجنوني لرجال كان الحكم والتكدير والاستبداد بالنسبة لهم مترادفات! رجال لم

يكتفوا ببشاعات الحرب الخارجية فأخذوا على عاتقهم مهمة إثارة الفرقة بين صفوف المواطنين وفرض الحرب الأهلية في كل أرجاء الجمهورية (...) وما أكثر ما اضطرت روح كليبر الجمهورية حقاً إلى المعاناة عند رؤية مثل هذا المشهد، وهو الرجل الذي، إذ تغذي علي مأثورات السياسات الأكثر حكمة، كان يتميز بأعظم سمو في الأفكار! وما أكثر ما كان عليه أن يتذكر نقاشاتنا في عام ١٧٨٩ وفي عام ٩٠ ويقول إن هذه ليست الجمهورية التي طالما حلمنا بها".

والحال أن عدم الارتياح هذا تجاه الجمهورية إنما يجد تفسيره في عين ظروف الوضع السياسي للثورة الفرنسية. وقد أوضح ذلك ج. ر. سوراتو تماما في مقاله التركيبي، **حكومة الإدارة، وجهات نظر وتفسيرات بالاستناد إلي المؤلفات الحديثة (آنال إستوريك دو لا ريفولوسيون فرانسيز**، ١٩٧٦، ص ص ١٨١ ـ ٢١٣) "كان البير ماتييه وجورج لوفافر علي اتفاق على أن الجمهوريين لم يكونوا يشكلون في عام ١٧٩٢ وفي عام ١٧٩٥ غالبية الفرنسيين، فلأسباب مختلفة، خاصة الأسباب الدينية، كانت هذه الغالبية متعلقة دائماً بالشكل الملكي للحكم، وذلك بالتأكيد شريطة قبول هذه الملكية لإصلاحات ١٧٨٩، وأن تكون دستورية وأن ترفض بشكل صريح النظام السياسي والاجتماعي القديم. وهو أمر كان غير وارد في عام ١٧٩٢، حيث كان الملك المخلوع يعتبر علاوة علي ذلك خائناً للأمة وعميلاً للأجنبي. كما كان هذا الأمر غير وارد أيضاً في عام ١٧٩٥، إذ كان المطالب بالعرش معادياً لقيام حكم ملكي دستوري كما كان معادياً في الوقت نفسه للتخلي عن الامتيازات.

"(...) وإذا كان الفرنسيون في عام ١٧٩٩ كانوا مايزالون ملكيين في غالبيتهم فمن المحتمل، إن لم يكن من المرجح، أن السبب في ذلك هو أن المشهد الذي أبدته جمهورية حكومة الإدارة لابد أنه لم يكن مساعداً بدرجة كبيرة علي تعزيز صورة هذه الجمهورية... ولم يكن بوسعهم إلاّ أن يتبنوا نظام مَلِكٍ جمهوري ينفذ الشروط المطلوبة. والحال أن بونابرت

سوف يكون، كما نقول اليوم، منسجماً مـــع هــذه "الصــورة النموذجيــة" لهذا الملك الجمهوري المنشود من جانب غالبيـــة الفرنســيين".

والواقع أن النظام كان مضطراً، لكي يحيــا، إلي اســتخدام وســائل تتعــارض مع مبادئه. ومن هنا ارتباك جمهوريين نـــــزيهين ومخلصــين مثــل كليــبر في ١٨ فروكتيدور الـــذي يوضــح اســتحالة حــدوث ســير عمــل طبيعــي للمؤسسات. وعندئذ سوف يصبح بونابرت هـــو المــلاذ الوحيــد. ومــن ثم ينجذب كليبر إليه، إلا أنه سوف يكون أيضاً واحداً من أوائـــل مــن خيبــت البونابرتية آمــالهم.

الفصل الثانـــي

اللقاء مع بونابرت

في أكتوبر ١٧٩٧، يرجع بونابرت إلى باريس ويجري تكليفه بإعداد وقيادة حملة ضد انجلترا. أما كليبر فهو يرشح نفسه في انتخابات العام السادس في الراين الأعلى وهو يبدو في نظر الناخبين يعقوبياً متطرفاً ومن ثم لا يتم انتخابه.

وهو يتلقى آنذاك من بونابرت، عبر وساطة كافاريللي، اقتراحاً بالمشاركة في الحملة الجديدة.

فما هو السبب في هذا الاختيار؟ من الواضح أن بونابرت كان على علم بسجل كليبر الرائع في الخدمة. فبالاشتراك مع مورو، كان الوحيد الذي تحرك في أواخر عام ١٧٩٦، في لحظة كان جيش حملة إيطاليا يمر فيها بوضع صعب وحيث كان بوسع حركة على الراين أن تخفف الضغط على قوات بونابرت[1].

وبعد ذلك بوقت قصير، يتأكد كليبر من أن فرقة برنادوت، التي كان من المقرر أن تعزز جيش ايطاليا، لم يكن يعوزها شيء. ويمكن لنا عندئذ أن نتصور بشكل مشروع أن بونابرت كان يحترم (كليبر) الأكبر منه سناً احتراماً كبيراً.

ومكانته السياسية هي من القوة بحيث إن حكومة الإدارة لم يعد بوسعها مناقشة قراراته في المجال العسكري، خاصة فيما يتعلق باختيار ضباطه الرئيسيين.

ويذهب كتاب **التاريخ العلمي** إلى أن كليبر كان متردداً:

"إن كليبر الوحيد، المعتكف في شايو، قد بدا أنه يريد الابتعاد. لقد كان يكن ضغينة ضد **الآفوكات** (المحامين) (هكذا كان يسمي حكومة الإدارة) وقد التزم هدوءه الألزاسي، إلاَّ أنه عندما جاء يوماً لزيارة بونابرت، اقترح عليه هذا الأخير أن يخرج معه (إلى الحملة على انجلترا – المترجم). فرد كليبر: "ليكن، ولكن هل سوف يوافق الآفوكات على ذلك؟"، فأجابه بونابرت: "سوف أتكفل بذلك". فقال كليبر الذي كان ما يزال يفكر في النزول إلى انجلترا: "حسناً! إذا ما أنزلت حراقة (سفينة كانت تستخدم آنذاك في حرق سفن العدو – المترجم) إلى التاميس، فلتضع فيها كليبر، وسوف ترى عندئذ ما الذي يمكنه عمله [٢]".

ويقدم تيبودو دافعاً آخر لكليبر، هو أن يعرف بشكل أفضل هذا البطل الشاب، الذي من المرجح أنه يذكره بمارسو الذي مات في السنة الماضية والذي قد يبدو له أنه يمثل حلاً للمأزق السياسي:

"إن الجنرال كليبر، الذي كان يمقت بونابرت من كل قلبه، قد قال بلهجته الحيوية الفظيعة أنه إنما يخرج أيضا لكي يرى ما الذي يحمله هذا البـ... القصير في أحشائه[٣]".

ويظهر اسم كليبر مع رتبة ومهمة قائد فرقة في قرار حكومة الإدارة الصادر بتاريخ ٢٣ نيفوز من العام السادس (١٢ يناير ١٧٩٨)[٤].

ويخرج كليبر لتفقد الإمكانيات التي تتيحها موانئ نورماندي، بينما يتفقد ديزيه بريتانيا وكافاريللي الشمال وبونابرت مداخل المنخفضات (بلجيكا). وتقود المناقشات التي جرت بينهم في أواخر فبراير إلى استنتاج أن الإنزال المباشر في انجلترا مستحيل.

والحال أن تاليران كان قد قدم لحكومة الإدارة منذ ١٤ فبراير ١٧٩٨ مذكرة ترتأي حملة على مصر[٥]. ويجري نقل التحرك فوراً من الجزر البريطانية إلى مسرح العمليات الجديد. وتتخذ حكومة

الإدارة القرار في ٥ مارس ١٧٩٨ بحثٌ من بونابرت.

وبالرغم من أن كليبر، شأنه في ذلك شأن كافاريللي، كان بالتأكيد على علم بتغير الهدف، إلاّ أنه لم يعلم إلاّ في ٢١ ابريل ١٧٩٨ بأن حكومة الإدارة قد حددت له مهمة:

"العمل تحت إمرة القائد العام بونابرت في الحملة التي يجري الإعداد لها في طولون".[٦]

وشهادة ايرنوف تقدم التحديدات المتعلقة بهذا التاريخ:

"كان كليبر على علم بالفعل بسر الحملة، لأنه كتب إلى ايرنوف، قبل ذلك بعدة أيام، راجيا اياه" أن يبحث عن وأن يسلم، فوراً، إلى مساعده كازال، ما يمكن العثور عليه من أهم الأعمال في أمانة الجيش من مذكرات وخرائط حول الهند وفارس ومصر". و قد أخذ والدي على عاتقه مهمة نقل هذه المذكرات؛ وكثيراً ما حدثني عن لقائه مع كليبر، الذي رآه في تلك المناسبة لآخر مرة. وكان معتكف الجنرال الشهير عبارة عن بيت صغير معزول، يقع على تل شايو، في مواجهة ساحة مارس، في الشارع الذي سمي من بعد باسم شارع المعارك. والحال أن كليبر الذي كان يرتدي دثارا فضفاضاً أخضر اللون له ياقة وزخارف برندبورية، وفقاً لموضة ذلك الزمن، كان منكباً على دراسة خريطة لمصر؛ ولم يلحظ دخول الضابط الشاب الذي وقف بلا حراك، خوفاً من إرباك فكره. كان كليبر يتتبع بإصبعه مجرى النيل، متوقفاً، من مسافة إلى أخرى، عند ساحات القتال المرجحة؛ وربما كانت هليوبوليس (عين شمس) واحدة من تلك الساحات! وبعد بضع دقائق، رفع رأسه فجأة وهو يهز جمجمته التي لها شكل جمجمة الأسد، كما كانت عادته، وثبت نظرة واضحة وعميقة على أبي، الذي عرفه على الفور. (...) وقد وجه إليه عدة أسئلة وبدا مرتاحاً لإجاباته. ثم قال في النهاية: "حسناً، إنني أود عمل شيء ما لأخ من إخوة السامبر

والميز. إن والدك لن يخرج معنا وإنني لأشعر بالأسف لذلك، فقد كان بوسعه أن يكون أكثر فائدة هناك مما في هذا المكان. لكنك سوف تجيء معي كمساعد لي، أليس كذلك؟ إننا سوف نذهب إلى بلد جميل سوف نجترح فيه مآثر عظيمة[٧]".

وهذه الشهادة دالة على نوع الحماس الذي واكب الإعداد للحملة[٨]. كما يرجع إشراك كليبر إلى رغبة بونابرت في أن يصور نفسه بالفعل في صورة حاشد للفرنسيين في تلك اللحظة التي تتميز باختتام عهد الثورات:

"لقد اتخذ بونابرت موقف الكاهن الأكبر الذي يملك وحده مفتاح سر عميق؛ ومارس هيمنة عظيمة على كل ما يتعلق بالحملة؛ وهو يقبل ويرفض ويختار رجاله. وبالنسبة له، لم يكن هناك فرق بين جمهوري أو ملكي، أرستقراطي أو يعقوبي، شريطة أن يتسنى له استخدامهم جميعاً في تحقيق أهدافه[٩]".

ويوافق كليبر على هدف الحملة: لأنه يجب شن هجوم ضد إنجلترا، وبما أن الجزر البريطانية عصية المنال، فإن استهداف مصر وطريق الهند يبدو له بمثابة الحل الوحيد. والمطمح الاستعماري ثانوي في تفكيره، وفكرة اجتراح "مآثر عظيمة" تكفي لإرضائه. ورسالته إلى مورو، والمؤرخة في ١٨ مايو ١٧٩٨، عشية إقلاع الحملة، إنما توضح ذلك جيداً:

"لابد أنك على علم بسر حملتنا. وقد سمعت أنك لا توافق عليها. وكنت أود أن يكون موقفك في هذا الصدد أقل تعجلاً. فعندما يقوم المرء بالشيء الوحيد الذي يمكن له القيام به، تعتبر العملية مناسبة، وذلك لمجرد أنه يتعذر القيام بما هو أفضل. إلا أنه عندما توجد في نهاية كل ذلك نتائج عظيمة يمكن الأمل فيها، فإنه يبدو لي أن من الواجب الموافقة[١٠]".

على أنه كان على وشك أن لا يرحل وذلك بسبب

التعقيدات الأوروبية. ووفقاً لنابوليون في سانت هيلانة:

"عندئذ عرض نابوليون ترك ديزيه وكليبر؛ فبوسع مواهبهما أن تصبح مفيدة لفرنسا. لكن حكومة الإدارة رفضتهما ولم تكن تقدرهما. فقد قالت: إن مصير الجمهورية لن يتوقف على جنرالين؛ إنها سوف تتمكن من حشد جمع من الجنرالات حتى يتمكن الوطن من الانتصار، إذا ما تعرض للخطر؛ إن ما نحتاج إليه بالأحرى هو الجنود لا الجنرالات[١١]".

ورطانة حكومة الإدارة هذه إنما تفصح عن التدهور العميق للعلاقات بين كبار الضباط والسلطة المدنية. وفيما يتعلق بهذا النوع من الديماجوجية والقائم على إيجاد تعارض بين الجنرالات والجنود، فقد سبق لكليبر أن صادفه بالفعل في الفانديه ولم يخف سخطه عليه.

على أن السرعة التي يتم بها تجهيز الحملة - صدر قرار القيام بها في ٥ مارس وغادرت طولون في ١٩ مايو ١٧٩٧ - إنما توضح تماماً أن فرنسا زمن حكومة الإدارة ليست مفككة بالدرجة التي كان يجري تخيلها، وأن جهازها العسكري هو على أية حال جهاز كفء بشكل ملحوظ[١٢].

حواشي الفصل الثاني

١- "تسير الأمور سيراً أحسن إلى حد ما على الراين، وقد ألحق مورو الهزيمة بالعدو، ويحل كليبر محل بورنونفيل: إن كل شيء يتحول تحولاً جد ممتاز" (رسالة من بونابرت إلى أخيه جوزيف، ٢٥ أكتوبر ١٧٩٦، **المراسلات**، المجلد ٢، ص ص٩٦-٩٧). أنظر أيضا رسالته إلى ماسينا بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٧٩٦ (**المصدر السابق**، المجلد٢، ص ص٨٥-٨٦).

٢- **التاريخ العلمي**، المجلد٣، ص ص ٣٢ – ٣٣.

٣- **تيبودو**، المجلد٢، ص٣٤٨

٤- **المراسلات**، المجلد٣، ص ٦٣٢.

٥- **لا جونكيير**، المجلد١، ص١٥٣.

٦- **المصدر السابق**، ص٣٤٣.

٧- إيرنوف، ص ص١٦٠ – ١٦١. ينتهي النص على النحو التالي: "طبيعي أن أبي لم يكن ليود ماهو أفضل من ذلك، لكن الجنرال ايرنوف، الذي تحدث إليه كليبر عن ذلك في المساء نفسه، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يعرض ابناً وحيداً إلى صدف حملة كهذه. ولو كان قد تجاوب مع رغبة كليبر، لكان من المرجح أن يجد هذا الأخير له اليوم كاتب سيرة على الأقل".

٨- تيبودو، المجلد٢، ص٣٤٦: "لقد جند الجنرال بونابرت من كل حدب وصوب ضباطاً وجنوداً، علماء وأدباء، عمالاً وفنانين. وحشد معدات وأدوات وكتباً وآلات ونماذج؛ والواقع أنه بدا بكل هذه الاستعدادات كما لو كان يتجه، في صورة كولومبوس جديد، إلى اكتشاف عالم وإلى نقل الحضارة إليه. وقد تجمع كل ذلك في طولون؛ وكان يمكن القول إن باريس سوف تهاجر إلى البحر المتوسط. وبالرغم من كل جهاز الحرب، فقد جرى الرحيل كما لو كان إلى نزهة استمتاع. وكان الأمر أشبه بمهرجان؛ وكان عند أولئك الذين أشركوا فيها حماسة جد مختلفة عن

تلك التي تسبق المعارك، و لم يكن دينون يتحدث إلاّ عن الراقصات الشرقيات، وعن صفو السماء وعن العطور التي تفوح بها أرض الميعاد".

٩- **المصدر السابق.**

١٠- رسالة من كليبر إلى مورو بتاريخ ١٨ مايو١٧٩٨.

١١- رسالة من نابوليون إلى مونتولون. لاجونكيير، المجلد١، ص٣٩٤.

١٢- يورد أ.ف.آرنو، وهو أديب شهير في ذلك العصر، حكاية مثيرة حول اجتياز البحر. فقد تواجد للتحدث مع بونابرت في كابينة هذا الأخير عن المقارنة بين مآثر هوميروس وأوسيان: "لقد احتج الجنرال عندما انفتح الباب وظهر دوروك. قال بونابرت عابساً: "ماهذا؟ إنني لم أطلب أحداً، لم أدق الجرس أبداً" فقال دوروك: "أيها الجنرال، بما أن الأسطول يوجه الأشرعة استعداداً للتوقف، فإن الجنرال كليبر قد اغتنم هذه الفرصة لكي يراك. وهو موجود في غرفة المجلس". فرد بونابرت: "ألم أقل لك أن تنتظر دق الجرس حتى تدخل؟ هل دققت الجرس؟ كيف تجيز لنفسك الخروج على أوامري؟" فرد دوروك: "أيها الجنرال، لقد تصورت أن الظرف..."، فقال بونابرت: "تصورك سيئ. لا شيءْ يجيز لك عدم طاعة الأوامر، أخرج ولا تعد إلاّ إذا طلبتك، أخرج".

"وقد خرج دوروك مرتبكاً تماماً. و لم أكن أقل ارتباكاً منه. وقد أعقبت هذا الانفجار بضع ثوان من الصمت. ومع اختفاء كل علامة من علامات المرح، قلت له: "أيها الجنرال، لقد كنت قاسياً جداً مع هذا التعس دوروك". فرد: "أليس عسكرياً؟ ألا يعرف معنى الأمر؟". فقلت: " الواقع أن الظرف خاص؛ وربما كانت لدى الجنرال كليبر أشياء مهمة يود قولها لك، بل ربما كانت أكثر أهمية من الأمور التي أحدثك أنا عنها. وليس بوسعه أن يرجع عن طيب خاطر"، فقال: "لا دخل لأحد في الحكم على مدى أهمية الأمور التي نتحدث فيها. ولو كنا نتحدث عن أمور أهم، لقطعوا حديثنا بمثل هذا المسلك"، فقلت: "ولكن، بعد قسوتك هذه، ألن ينسبوا إلى حديثنا أهمية تختلف تماماً عن أهميته الفعلية؟ سوف يتخيل كليبر

أننا نقرر هنا مصير أوروبا، مصير العالم، في حين أننا نتحدث عن أمور بريئة، إن كانت هناك مثل هذه الأمور، في حين أنني أدافع هنا، كالمحامي باتلان، عن هوميروس ضد الحورية كاليبسو".

"وإذ دفعته هذه المزحة إلى الضحك قال: "أرجوك أن لا تولي لي أهمية أكبر من الأهمية التي أستحقها".

"ثم نهض، وقال وهو يتجه إلى الباب، دون أن يترك خفه مع ذلك: "دعنا نذهب لرؤية كليبر" (**ذكريات ستيني**، باريس، ١٨٣٣، المجلد٤، ص ص٨٦-٨٨).

الفصل الثالث

الإسكندرية

العمل المثالي بالنسبة لكليبر هو قيادة فرقته، إلاّ أنه، بما أنه قد جُرح خلال الاستيلاء على الإسكندرية (الأول من يوليو ١٧٩٨)، يتلقى من بونابرت مهمة حكم الإسكندرية ونواحيها خلال فترة تماثله للشفاء من إصابته. والمهمة مهمة، فعليه أن يؤمن مؤخرات الجيش والاتصالات مع الأسطول الراسي في مرسى أبو قير المجاور. أما مينو، الذي جرح هو الآخر، فإنه يحصل على قيادة رشيد.

وفي ذلك الزمن، كانت الإسكندرية مدينة مجردة من مجدها القديم. وهي ضحية لمنافسة رشيد التي تشهد نمواً سافراً. والحال أن افتقارها إلى الدينامية الاقتصادية وأوبئة الطاعون جد المتكررة في القرن الثامن عشر، إنما تؤدي إلى اختزال سكانها إلى ما بين خمسة وستة آلاف نسمة[1].

على أنها تظل موقعاً تجارياً نشيطاً، وثغراً توجد فيه قنصليات أوروبية ومدينة إسلامية عامرة ببنيتها التحتية الدينية من مساجد ومدارس لتعليم القرآن.

وإذا كانت المدينة لا تحيا إلاّ على التجارة - تسكن هناك جماعة سكانية مهمة قادمة من جميع ولايات الدولة العثمانية (أتراك ومغاربة ويهود ويونانيون وشوام مسيحيون) - إلاّ أن الجماعة المهيمنة التقليدية لا تتألف من التجار، بل، كما هي الحال في المدن العثمانية الأخرى، من أهل الشريعة وأهل السيف. ومن جهة أخرى يكثف التجار علاقات الحماية والاستغلال كما يكثفون الأواصر

الزواجية مع الجماعة المهيمنة.

والحال أن هذا الإطار الاجتماعي هو الذي يسمح بفهم الصعود الاجتماعي للسيد محمد كريم الذي يتصدر الحوار مع الفرنسيين[٢].

ومحمد كريم، الذي من المرجح أنه قد ولد في عام ١٧٤٥، من عائلة من الأشراف، أي أحفاد النبي، وإن كانت ذات وضع اجتماعي متواضع، تلقي تعليماً إسلامياً وافياً في مدارس تعليم القرآن في الإسكندرية. وكان والده يريد له أن يصبح من العلماء، فقيهاً في العلوم الإسلامية ومن ثم قاضياً، وهي مهنة رائجة بين الأشراف. ولذا فإنه يستعد لمواصلة دراساته في الأزهر في القاهرة. على أن الاختفاء المبكر لرب الأسرة يحبط المشروع ويجبر الشاب على كسب عيشه فوراً. إن الطريق الملكي للصعود الاجتماعي لمصري في القرن الثامن عشر إنما يصبح مسدوداً في وجهه.

ويبدأ العمل في البداية كصبي عند قباني (وزان) ثم يستقل بالعمل. وهو يتمتع عندئذ بسمعة ضخمة كرجل نزيه كما يتمتع بهيبة اجتماعية معينة لا تعوض عن إخفاق طموحاته الأولى. وحتى يتسنى له الصعود على المستوى الاجتماعي، فسوف يندرج في الشبكة السياسية للزعيم المملوكي الكبير مراد بك.

ويشهد الجبرتي على ذلك:

"أحبه الناس واشتهر ذكره في ثغر سكندرية ورشيد ومصر واتصل بصالح بيك حتى كان وكيلاً بدار السعادة وله الكلمة النافذة في ثغر رشيد دون سكندرية حتى صَيَّرَ رشيد وضواحيها كالالتزام له ويحكم فيها بما أراد وأقام بها رجلاً رومياً [٣] كرتلي يقال له عثمان خجا فتحكم بها وتنوع في مصادرة أهلها واستجلب الأموال لمخدومه بكل حيلة، فأتحد به السيد محمد المذكور وتوصل به وبغيره إلى صالح بيك ثم به إلى مراد بيك فتقرب له بأمور تتعلق بالثغر".

ولابد أن هذا الحدث الأساسي قد حدث بعد عام ١٧٩١، عندما استعاد مراد وإبراهيم السيطرة على مصر السفلى. والحال أن الإسكندرية كانت بشكل واضح بؤرة للمعارضة للمماليك ولسياستهم التي تتميز بالمصادرات وبالمظالم. ويقارن الجبرتي بين مسلك العلماء العادل والمتوازن والعنف الكارثي الذي يلجأ إليه وكلاء المماليك. وإذا ماصدقناه، فقد كانت الإسكندرية هي المدينة الإسلامية المثالية قبل هيمنة كريم هذا الذي أفسدها:

"فوقع (محمد كريم) من مراد بيك موقعاً ووافق منه الغرض الذي كان يرومه، فإن الثغر السكندري كان محترماً وأهله مؤتلفون وكلمتهم متفقة فلا تنفذ أوامر الأمرا بمصر فيهم ولا يتحكمون به كتحكمهم في غيره ولا يتمكنون من مصادرة أحد منهم في ماله أو متاعه وليس للسردار المتولي من طرفهم ومعلم الديوان إلاّ القوانين المعلومة.

"وعندهم رجل من الفقها المالكية يسمى الشيخ محمد المسيري يلقي لهم الدروس ويقرر لهم فقه الإمام مالك ويظهر التزهد عما بأيديهم ويتورع عن الشبهات ويتباعد عن المحرمات، فاجتمعت قلوبهم على محبته وعكفوا على طاعته بحيث صار مرجعهم في كل الأمور، فإذا دهمهم أمر فزعوا إليه وعرضوه عليه وانتظروا رأيه فيه واستمعوا لما يقوله ويبديه، فإن أمرهم بأمر امتثلوه أو نهاهم عنه اجتنبوه فإذا أراد أحد من الحكام أو غيرهم التعرض لأدنى شخص منهم من غير وجه وأعلموه بذلك وأمرهم فيه بأمر بادروا جميعاً إليه وربما ضربوه وأخرجوه من بينهم.

"فكان الأمرا بمصر يكمنون الحقد على أهل الثغر وعليه ويتوقعون فرصة ينالون بها أغراضهم ويفرقون ألفة قلوبهم، إلى أن ظهر السيد محمد المذكور واتصل بصالح بيك ومراد بيك وحواشيهم وتقرب إليهم ورفعوا شأنه على أقرانه وقلدوه أمر

الديوان والجمارك بالثغر فَعَلا شانه ونفذت كلمته وتصدر لغالب الأمور وزاد في المكوسات وتحيل في المصادرات خصوصاً مع تجار الفرنج فإنه تصدر لهم بالزيادة في مكوسات بضايعهم وبعد أن يقبض ما يقرره يراسل مراد بيك ويخبره بما حضر لهم من الجوخ وغيره ويعلمه بمكانه وأنه واصل إلى مصر بالمركب الفلانية فيرسل مراد بيك من يرصده حين حضوره فيأخذ ما أحب من المركب أو من المخازن بثمن في الدفتر لا يدفعه، واقتدى بفعله أمراؤه أيضاً ".

ومن ثم فإن محمد كريم هو أحد المسئولين عن الكارثة التي تحيق بمصر:

"هذه الأمور كانت من أعظم الأسباب في حركة الفرنسيس التي عمت وطمت".

والجبرتي هو نفسه من العلماء. ومن ثم فإنه متضامن مع زملائه السكندريين. والحال أن محمد كريم مسئول عن مصرع واحد من أبرز رجال الدين السكندريين، هو نقيب أشراف المدينة، أي نقيب أحفاد النبي، وهو منصب جد مهم في العصر العثماني. وقد وقع الحادث بعد عودة من حج باذخ إلى مكة قام به محمد كريم:

"رجع إلى بلده سكندرية، فلما استقرت قدمه بها أخذ في تحصيل جانب من المال ليرسله لمراد بيك. فأول ما بدأ به أنه أحضر السيد أحمد أبوشهبه نقيب الأشراف ووكيله على الديوان فحاسبه على ما تأداه وصرفه فتأخر جهته قدر من الدراهم بسبب أن السيد أحمد المذكور كان يلاطف الناس ويعاملهم بالرفق في الجمارك والمكوسات (...).

"وزاد بينهما التشاجر والتفاقم وانتصر له الشيخ المسيري الذي إليه مرجع عامة أهل الثغر وافترق الناس فرقتين وثلاثة، فرقة مع السيد محمد كريم والأخرى مع المسيري وأبوشهبة (...) وفرقة

متنحية عن الفئتين خوف العاقبة ولكن المعظم مع السيد محمد. فأرسل إلى مخدومه يشكو من أهل الثغر ويستدعيه في إرسال كاشف[٤] يشتد به عضده ويقوى ساعده، وتوسطت بينهما الناس وصالحوهم، فلم يمكن السيد محمد تدارك المنع في طلبته. وفي أثر ذلك أرسل مراد بيك حسن أغا خازن داره سابقاً وكان متحيلاً فدخل إلى الثغر، وعلم أبوشهبه أنه أول مطلوب فاشتد خوفه وضاق خناقه فاختفى وطُلب فلم يوجد ثم ظهر بعد أيام ميتاً في صهريج داره، فاحتاطوا بموجوده وراجعوا بالحساب فيما نقصه أبوشهبه أو سامح فيه واستخلصوه من أربابه".

وبشكل معين، فإن المحن التي تصيب المدينة آنذاك هي نتيجة هذا الانتهاك للنظام الإسلامي:

"وفشي الطاعون بالثغر وكثر إلى أن مات به حسن أغا المعين المذكور. وتداولت الأيام وحضر جماعة الفرنج وملكوا الثغر".

ولن يكتشف الفرنسيون إلاّ تدريجياً جداً هذا الانقسام السياسي للمجتمع السكندري. وسوف يؤدي تغلغلهم إلى تحوير قواعد اللعبة واستئناف النزاع بإعطاء العلماء هامش مناورة أوسع. وتتجلى هذه الظاهرة نفسها في عموم مصر.

ومحمد كريم هو منظم المقاومة ضد الفرنسيين. وبسبب ريبته، فإنه يرفض في شهر يونيو المساعدة التي يقترحها عليه نيلسون الذي يبحث عن الأسطول الفرنسي. لكنه الآن يناشد البدو ومماليك الناحية. وهو لا يملك شيئاً في مواجهة نزول الفرنسيين" كالجراد المنتشر حول البلد".[٥]

ومن الواضح أن الفرنسيين يتمتعون بتفوق عددي أكثر من ساحق. وقوالهم حنكتها أعوام المعارك في أوروبا. ومحمد كريم هو آخر من يستسلم في أول يوليو ١٧٩٨.

ويتمنى بونابرت أن يجعل من الإسكندرية مختبراً لسياسته

المصرية: كسب العلماء ووضعهم في مواجهة المماليك. ومن ثم فإنه يسعى إلى الفوز بمساندة العلماء الذين يستعيدون دورهم الطبيعي كوسيط بين السلطة العسكرية والشعب ويوقعون في ٤ مايو ١٧٩٨ إعلاناً يحدد قواعد التعايش مع الفرنسيين:

"هذا هو الاتفاق الذي تم بيننا، نحن أعيان مدينة الإسكندرية، الذين ترد أسماؤهم أدنى هذه الوثيقة، وبين قائد الأمة الفرنسية، القائد العام للجيش المعسكر في المدينة.

"إن الأعيان المذكورين سوف يواصلون مراعاة شريعتهم ومؤسساتهم الدينية؛ وسوف يقضون في المنازعات بحسب العدالة الأكثر نزاهة وسوف ينأون بأنفسهم حريصين عن طريق الظلم المعوج...

"وسوف يهتم الشيوخ المذكورون بالأسباب الكفيلة بتأمين هيمنة العدالة وسوف يوجهون كل جهودهم صوب هذه الغاية وحدها، إذ لا تحركهم غير روح واحدة... وسوف يعملون بحماسة من أجل خير البلد وسعادة السكان ودمار الأشرار والمجرمين. كما يتعهدون بأن لا يخونوا أبداً الجيش الفرنسي وبأن لا يسعوا أبداً إلى إزعاجه، وبأن لا يعملوا أبداً ضد مصالحه وبأن لا يندرجوا في أية مؤامرة قد تنشأ ضده.

"ومن جهته، وعدهم القائد العام للجيش الفرنسي بأن يحول دون قيام أي واحد من جنود جيشه بإزعاج سكان الإسكندرية بالمضايقات وبالاغتصابات وبالتهديدات وبأن من يقترف مثل هذه التجاوزات سوف يعاقب أقسى عقاب.

"كما وعد القائد العام على نحو مشهود بأن لا يجبر أي واحد من السكان على تغيير دينه وبأن لا يُدخل أبداً أية بدعة في الممارسات الدينية؛ فنيته، خلافاً لذلك، هي أن يبقى جميع السكان على ديانتهم، وأن يكفل لهم راحتهم

وممتلكاتهم، بجميع ما لديه من وسائل، ماداموا لا يسعون بالمرة إلى إزعاجه أو إزعاج الجيش الذي يقوده"(٦).

وفي اليوم التالي، يجرى الانخراط في محاولة تمرد من جانب البدو. ويجيء زعماؤهم من تلقاء أنفسهم ومعهم أربعين أسيراً. ووفقاً لشهادة لوجييه:

"استقبلهم القائد العام ببالغ الحفاوة، وقدم لهم هدايا، ومتعهم بموسيقاه. وقد أظهروا قدراً من الرهافة في كلامهم، فقالوا: "لقد قلتم لنا إنكم إنما جئتم من أجل صالحنا وإنكم لا تحاربون غير المماليك، ظالمينا، لكنكم هبطتم سراً وزحفتم بأسلحتكم علينا، ولم نكن ندري أنكم فرنسيون ولم يكن بوسعنا أن نتصور إلاً أنكم روس، أعداء صديقنا السلطان". وهذا التبرير حاذق بأكثر مما هو صادق. إلاً أنه جرى التعامل معهم؛ على أن هؤلاء الرسل، لدى انسحابهم، قد اصطدموا بقوات أعتقد أنها من فرقة بون التي لم يجر إخطارها بالاتفاق، وهو أمر عجيب، وكان بوسعهم أن يبرزوا واثقين الورقة التي حصلوا عليها من القائد العام بما يسمح لهم بسلامة المرور، إلاً أن أحداً لم يمهلهم وجرى إطلاق النار عليهم. وقد لقى أربعة من بينهم مصرعهم. ومهما كان ما جرى عمله لإصلاح هذا الالتباس المحزن، فلم يكن بوسع شيء أن يعيدهم إلى صفنا. ولم يتوقفوا عن اعتبارنا أكثر الناس خداعاً ولم يكن العرب أقل حماسة في إزعاجنا"(٧).

ومن ثم يسعى بونابرت إلى الاعتماد على العلماء، إلاً أنه يشوش الموقف دون قصد إذ يقدم في الوقت نفسه عروضاً لمحمد كريم الذي يقبلها. وفي ٧ يوليو ١٧٩٨، يحدد قرار صادر من بونابرت مهام الشريف:

"إن القائد العام، وقد ارتاح كل الارتياح إلى المسلك الذي التزم به السيد محمد كريم منذ وصول الجيش الفرنسي، يعينه في

موقع محافظ دائرة الإسكندرية. وسوف ينقل إليه أوامره عن طريق الجنرال كليبر، الذي يقود كل الدائرة، وهو إجراء لا يمنعه من مكاتبة القائد العام كلما شاء ذلك.

"وسوف يلجأ إليه الجنرال كليبر في كل الحاجات التي يمكنه تدبيرها لخدمة الجيش الفرنسي وحماية الدائرة من العرب"(٨).

ومن ثم فإن التعارض ينشأ من جديد بين الجماعتين السياسيتين السكندريتين. وينكب محمد كريم فوراً على تنظيم المقاومة ضد الفرنسيين مع لعبه من الناحية الظاهرية بورقة التعاون معهم. أما فيما يتعلق بالعلماء، فإنهم يلتزمون موقف الترقب والانتظار.

ويترك بونابرت لكليبر قوات مهمة: نصف اللواء التاسع والستين وقوامه ١٨٠٠ رجل وبعض وحدات المدفعية والهندسة ومستودعات الجيش، والمالطيين الذين جرى تجنيدهم بالقوة عند الاستيلاء على جزيرة مالطة والذين تعين تنظيمهم في فيلق خاص. ويصل العدد الإجمالي إلى ستة آلاف وخمسمائة رجل ثلثهم من المقاتلين(٩). ويتجاوز عدد الفرنسيين عدد السكندريين. وتدريجياً، اعتباراً من أغسطس ١٧٩٨، تفرغ المستودعات مع استقرار الفرنسيين في عموم مصر السفلى، لكن البحارة الهاربين من معركة أبوقير إنما يحلون محل المغادرين. ومن ثم تصبح الأعباء جسيمة، إذ يتعين ضمان المواد الغذائية بممارسة ضغط علي مؤخرة البلد، بينما يحول الإنجليز دون الاتصالات البحرية ولا تتمتع الإسكندرية بموارد مناسبة في هذا المجال.

واعتباراً من ٦ يوليو، يبدأ الجانب الرئيسي من الجيش زحفه الشاق إلى القاهرة وسرعان مالا يحصل كليبر بعدُ على معلومات حول تطور الأحداث. ويستفيد محمد كريم من هذا الانعدام لليقين لكي يعد لانتفاضة عامة ضد الفرنسيين. وسرعان ما يستشعر هؤلاء الأخيرون في

تزايد الحوادث، المترتبة جزئياً على سوء سلوك الجنود، إرادة تنظيمية.

ولا تدوم فترة التوتر هذه غير أسبوعين. والحال أن كليبر، المرتاب، إنما يأمر بإلقاء القبض على الشريف ويرسله إلى القاهرة حيث يتم إعدامه. وتجب الإشارة إلى أن بونابرت قد تلقى من جهته وشايات ضد محمد كريم.

ويتصرف سكان الإسكندرية كأية جماعة سكانية تحت الاحتلال كما يوضح ذلك كليبر في رسالته إلى بونابرت بتاريخ ١٩ يوليو:

"إن هؤلاء الناس يعتبرون كل إمارات المودة التي أبديها لهم دليلاً على الضعف، بينما هم هنا، من جهة أخرى، بالرغم من قلة ما أبديه لهم، لا أقول من الصرامة ولكن من الحزم، يتصاغرون أمامي. وسوف يتصاغرون أكثر عندما يعلمون، أيها الجنرال، أنك قد دخلت القاهرة، وإلى أن يحدث ذلك، وماداموا يتقلبون بين الخوف والأمل، فإنني لا أقيم وزناً يذكر لحلفاناتهم"(١٠).

أمّا فيما يتعلق بالأعيان من فريق العلماء، وعلى رأسهم الشيخ المسيري، فإنهم يحصلون على المهام التي أعطيت من قبل للشريف ومن الواضح أنهم يختارون ورقة التعاون، أو بالأحرى، وفقاً لمنطق دورهم، ورقة الوساطة. وهم يرفضون مواصلة المقاومة النشيطة التي يستأنفها زميل قديم لمحمد كريم، وهو تاجر من أصل مغربي، اسمه عبدالله باشي.

ويبدو أن الموقف ينجلي للفرنسيين مع وصول نبأ معركة الأهرام ودخول بونابرت القاهرة. وإذا ماصدقنا كليبر، فإن الاحتفال بالانتصار في الإسكندرية يتم بمشاركة الأعيان (٣١ يوليو ١٧٩٨):

"تلقيت زيارة من البعثات الديبلوماسية ومن التجار من جميع الأمم وكذلك من أعيان المدينة المسلمين؛ وقد أبدى الجميع ولاءهم

وإخلاصهم للجمهورية الفرنسية. وقد أجبتهم بأنني ما كنت لأسعد فعلاً بهذا الانتصار لو لم أكن على قناعة عميقة بأن من شأنه أن يسهم بشكل فعال في هناء وخير الجميع. وقالوا لي إنهم على ثقة من ذلك هم أيضاً. وخلال الليل، جرت إضاءة وفتح الأسواق والدكاكين وجميع الدور. وقد مكث الزعماء المسلمون في قاعة رحبة دخلها الفرنسيون والأتراك على حد سواء. وقد بقيتُ هناك قليلاً ورأيت توزيع المرطبات هناك بشكل واسع ودون مقابل على من يريد تناولها. وشوهدت هناك بعض زوجات الضباط والتجار الإفرنج اللاتي ظهرن، لأول مرة في حياتهن، في هذا المكان. وبوجه عام، فقد بدأ الحبور وبدا غير مصطنع"[١١].

إلاّ أنه في اليوم التالي مباشرة، تبدأ معركة أبو قير البحرية. وتسمع أصداؤها المدوية في الإسكندرية نفسها. وتؤدي الهزيمة الفرنسية إلى تبديل الوضع بالكامل. فالبحارة الهاربون أو الذين أطلق الإنجليز سراحهم يتدفقون على الإسكندرية ويمكن الخوف من هجوم إنجليزي على الثغر. وفي أواسط أغسطس، يبدو أن الخطر يتجسد، ثم يأخذ التهديد الإنجليزي في التضاؤل. ويستفيد كليبر من ذلك لكي يطبق نموذج التنظيم السياسي الذي أعده بونابرت. ويبدو أن العلماء يهتمون بالأمر ويرفضون المقترحات الأنجلو – تركية والخاصة بالإعداد لانتفاضة، بل إن الأمر يصل بهم إلى حد كشف هذه المقترحات لكليبر.

وما ذلك إلاّ لأنهم منزعجون من تحرك عبد الله باشي الذي يمثل تهديداً قاتلاً للمدينة. فهذه الأخيرة تعتمد اعتماداً كاملاً في تزويدها بالمياه على الخليج الذي يربطها بالنيل. وفي ذلك العصر، لا يصل الماء إلى الإسكندرية إلاّ خلال فيضان النيل، ويتم جمعه في خزانات. ولن يصبح جريان الماء دائماً إلاّ في عهد محمد علي، وذلك بفضل حفر ترعة المحمودية، وهو الأمر الذي سوف يسمح

بنهوض المدينة. وبما أن شهر أغسطس هو الشهر الذي يسبق الفيضان، فإن الاحتياطات كانت أكثر انخفاضاً وذلك بقدر ما أن عدد السكان قد تضاعف على الأقل مع الاحتلال. وعلاوة على ذلك فإن الجنود قد أهدروا الأجهزة الهيدروليكية.

والحال أن ائتلاف بدو أولاد علي والمماليك وفلاحي إقليم دمنهور، والذي يحركه عبد الله باشي، إنما يهدد بأن يقطع بالكامل وصول المياه ومن ثم جعل المدينة غير قابلة للسكني بالنسبة للفرنسيين ولسكانها على حد سواء.

ولا يدرك كليبر الخطر فعلاً إلاَّ في النصف الثاني من أغسطس. أما أعيان الإسكندرية، خصوصاً الشيخ المسيري، فإنهم يستخدمون شبكة نفوذهم الخاصة في الأرياف لكي يسمحوا بالتعاون الضروري بين الفرنسيين والمصريين لأجل وصول المياه. والرجل الذي يقع عليه الاختيار هو أحد أعيان دمنهور، وهو الأمير إبراهيم، الذي يعد بتأمين تهدئة الإقليم ويقدم رهائن. وأمام ضغط المقاومة المضادة للفرنسيين، فإنه يطلب في البداية عون الفرنسيين العسكري (١٢ سبتمبر ١٧٩٨) والذي يطلبه أيضاً ديوان الإسكندرية. ويتصرف كليبر آنذاك عبر سياسة إرهاب، تتميز على نحو خاص بتدمير قرية بركة غيطاس وذبح جزء من سكانها. وهذا لا يحول دون تخلي الأمير إبراهيم في عين اللحظة التي يترك فيها كليبر قيادته (١٩ سبتمبر ١٧٩٨).

وعبر هذا الحادث، تتكشف بشكل مشوش شبكة ثلاثية من العلاقات تربط بين المدينة (الإسكندرية) والريف (دمنهور) والصحراء (أولاد علي). وواقع أن وصول المياه قبل وصول الفرنسيين لم يكن يتم بالفعل إلاَّ بالقوة إنما يشير على الأرجح إلى تعارض بين المدينة والريف.

والعنصر المثير للاهتمام هو أن الائتلاف المعادي للفرنسيين

إنما يحركه شخص مغربي الأصل. والحال أنه في السنة التالية، وفي الإقليم نفسه، سوف تحدث انتفاضة ذات مصدر إلهام ديني وألفي يلهمها مهدي، هو أيضا من أصل مغربي. ودون أن تكون لدينا براهين، فإن بوسعنا افتراض أن التمرد الأول إنما يشترك مع هذه الانتفاضة في مصدر إلهامها.

والواقع أن انحدار السلطة المركزية في مصر في القرن الثامن عشر إنما يزيد من مراكز السلطة المستقلة والتي تربط بينها علاقات معقدة. ومن ثم فسوف تكون المقاومة للفرنسيين فعالة بقدر ما لا يتوصل هؤلاء الأخيرون إلى العثور على مركز واحد وحيد في مصر. ومن ثم فسوف تظل المقاومة دائمة خلال سنوات الحملة الثلاث. لكن تعدد المراكز إنما يحول دون نشوب أية انتفاضة عامة من جانب مصر وسوف يسمح للمحتلين بالتوصل إلى تهدئات جزئية مع مراكز السلطة المختلفة. وعدم التجانس السياسي والاجتماعي لمصر في ذلك الزمن يسمح بفهم أن كل عنصر إنما يلعب لعبته السياسية الخاصة تجاه الفرنسيين كما تجاه العناصر الأخرى. وقد وجد كليبر نفسه في قيادته للإسكندرية ونواحيها في مواجهة هذا الواقع الذي لا يفهمه بالفعل والذي يماثله بمنطق حروب الثورة في أوروبا (الرسالة التحريرية لـ"الأمة العظمى").

وهذه القيادة لم يردها كليبر: فهي نوع المهام الذي رفضه دائماً. وقد زعم دائماً أنه لم يخلق للإدارة. وليس من شأن العزلة التي يجد نفسه فيها إلاّ أن تزيد من ثقل مسئوليته.

وهو، في العلاقات مع المصريين، يشدد على ضرورة مراعاة مزاج السكان [١٢] والحرص على مراعاة قواعد حياتهم، والتعامل معهم بمراعاة [١٣]. ويجب: "أن نثبت لهم بشكل متزايد على مدار جميع الأيام أننا لم نأت إلاّ بنوايا سلمية" [١٤] حتى "لا يكون مجيء الفرنسيين سبب معاناة خاصة" [١٥].

ويصدق كليبر بإخلاص برنامج الحملة التحريري. فمصر بالنسبة له هي ساحة معركة ضد إنجلترا وأرض يجب تحريرها وموضوع دراسة علمية ومن الواضح أيضاً أنها فرصة للفوز بالمجد. والخلاصة أن المسألة هي مسألة اجتراح "مآثر عظمى" فيها.[١٦]

وطموح الاستعمار والفتح لا وجود لديه بالمرة. وهو في ذلك أيضاً نقيض بونابرت. فهو الرجل الذي كتب إلى حكومة الإدارة في ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦:

"بوصفي جندياً للثورة، فإنني لم أحمل السلاح إلاّ للفوز بالحرية ولإبعاد أعدائنا عن الحدود. ومع كسب الحرية وإبعاد العدو عن حدودنا وارتياح الوطن، فإنني لم أتعاقد إلاّ معه. إنني لا أريد أن أكون ولن أكون أبداً الأداة السلبية بيد أي نظام فتح"[١٧]

وكل معارضته لمينو، نصير جعل مصر مستعمرة، سوف تنبع من هذا الموقف المبدئي.

لكن كليبر لا يتردد في التصرف بقسوة من أجل تطبيق سياسته. فالمصريون يجيئون بعد راحة وأمن جنوده (إلاّ أن بوسعه أن يكون قمعياً جداً تجاه هؤلاء الأخيرين حيث يصل به الأمر إلى حد تطبيق أحكام بإعدام عدد منهم سعياً إلى استعادة الانضباط).

وعبء الإدارة شديد الإرهاق له خاصة وأنه مصحوب بأزمة مالية دائمة تحول دون أي تحسين ملموس لحالة الجندي كما تحول دون أي وفاق حقيقي مع المصريين.

وكما حدث في ألمانيا، فإنه يبرز عجز إدارة الجيش كما يبرز واقع صلاحيات بونابرت في مجال الإمدادات.

ولا يسع هذا الأخير إلاّ أن يطلب إليه زيادة المصادرات والضرائب القسرية، وهو أمر ينفر منه لأن وضع الإسكندرية هو من الحرج بحيث إن "كل شيء يجب أن يدار هنا من الخارج عبر الثقة وعبر جاذبية الكسب، ويجب ولا مفر من سداد ثمن كل شيء

نقداً وفوراً" [١٨]. ومن ثم فمن "سوء السياسة البالغ التحدث عن الاستدانة أو عن المصادرة" [١٩].

ثم إن تدفق البحارة بعد أبوقير إنما يزيد من تفاقم الوضع. والحال أن كليبر لا يكن احتراماً كبيراً للبحارة: "إنهم رجال معتادون على العيش في الفوضى ويألفون جميع الرذائل" [٢٠]

ورأيه في البحرية لا يتزحزح:

"إنني لأشعر بالأسف للهزيلين وللأشباح الذين يستخدمونهم فيها. لقد قال لي البائس كازابيانكا مرة وهو يتأوه وكما لو كان يستشعر ما سوف يحدث له: "إن بحريتنا هي جثة وبيئة" [٢١] والحال أنها أسوأ من ذلك بكثير" [٢٢]. ونتيجة لكل ذلك، فإن: "إدارياً جمهورياً طيباً لابد له، بضربة ساحر، أن يخرج من باطن الأرض كل ما يحتاج إليه ولابد له من أن يكون موسى آخر في الصحراء" [٢٣] و"من بين جميع أساليب الإدارة، فإن أكثرها شراً هو الأسلوب الذي يأمرونك عبره بانفاقات دون أن يوضحوا لك البتة من أين وكيف يمكن تدبير ما يلزم للوفاء بها" [٢٤]. كما أنه، منذ البداية، يعتبر "الإسكندرية منفى" [٢٥]. وهو يطلب من بونابرت في مناسبات عديدة السماح له بالانضمام إلى فرقته حيث "إنني أرى أن مسلكي يتناقض كثيراً مع أوامرك، ويتعارض كثيراً مع نظام الإدارة الذي يبدو أنه قد جرى اعتماده إلى حد أنني لست واثقاً من أنني سوف أتمكن من إرضائك" [٢٦].

والحال أنه بسبب مشكلة الاعتمادات المخصصة للبحرية، والتي استخدمها كليبر في أبواب أخرى، تنشب الأزمة الأولى في علاقاته مع بونابرت. وعلى توبيخات هذا الأخير، يرد كليبر غاضباً:

"لقد نسيت، أيها المواطن الجنرال، وأنت تكتب تلك الرسالة، أنك تمسك بإزميل التاريخ وأنك تكتب إلى كليبر، على

أنني لا أظن أنك قد راودتك أدنى فكرة غير الفكرة التي أعربت عنها، وإلا فإن المرء لن يصدقك"[٢٧].

وبالرغم من كلمات القائد العام التي تهدف إلى تهدئة خاطر كليبر، فإن هذا الأخير، متذرعاً بحالته الصحية، يطلب إعفاءه من قيادته والسماح له بالعودة إلى فرنسا. وهكذا يستعيد مواقفه خلال حملة ألمانيا، بما يعد علامة على أن الأزمة الشخصية كانت قد أصبحت حادة بالفعل. وكان لابد من تدخل نشيط من جانب كافاريللي لمصالحته مع بونابرت.

وعندما يستقر كليبر في القاهرة، فإنه يكتب عندئذ النسخة النهائية من مذكراته عن الفانديه[٢٨] مستفيداً من شهادات قدامى تلك الحرب الأهلية الموجودين في مصر. ولابد أن غالبية يومياته الشخصية وملاحظاته حول عاصمة مصر إنما ترجع إلى ذلك الوقت. وخلال رحلة بونابرت إلى السويس، يحصل على قيادة القاهرة، ثم يستعيد قيادة فرقته لأجل الحملة على الشام.

حواشي الفصل الثالث

١- حول الإسكندرية في ذلك العصر، انظر محمد عبدالحميد الحناوي، **الاسكندرية في عهد الحملة الفرنسية**، أطروحة عملية، جامعة المنيا، ١٩٨٥.

٢- حول سيرة محمد كريم، انظر الجبرتي "وفيات سنة ١٢١٣" وخاصة التفاصيل الأطول التي نقدم هنا مقتطفات منها، والواردة في **تاريخ مدة الفرنسيس بمصر** الذي حققه وترجمه ش.موريه تحت عنوان **أخبار الجبرتي حول الأشهر السبعة الأولى للاحتلال الفرنسي لمصر**، ليدن، ١٩٧٥، ص ص ٤١-٤٣ من النص العربي وص ص ٦٨-٧٠ من الترجمة الانجليزية. وهذا النص شبه معاصر للأحداث ويقدم رد فعل المؤرخ المصري العظيم المباشر. ومن المثير للانتباه أن الجبرتي لا يتحدث إلاّ في عدة جمل جد غامضة عن الوضع السياسي للاسكندرية في كتاب **"عجائب الآثار"** بينما يسهب في الحديث عنه بشكل مفرط في **المدة**. وبوسعنا أن نتساءل، استناداً إلى هذا المثال، ما إذا كانت قلة الاهتمام مقصودة أم أنها ترجع، كما هو شائع، إلى نقص المعلومات.

٣- **رومي** في النص العربي، ويترجمها موريه بيوناني، لكن الرومي يمكن أن يكون شخصاً عثمانياً منحدراً من الأناضول أو من البلقان.

٤- مملوك من رتبة أدنى مباشرة من رتبة البيك.

٥- الجبرتي: **يوميات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية**، ترجمة جوزيف كوك، باريس، ١٩٧٩، ص٢٣.

٦- لاجونكيير، المجلد ٢، ص ص ٦٥ - ٦٦ "هذا الاتفاق المحرر صباح الاربعاء ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ للهجرة يحمل التوقيعات التالية: الفقير ابراهيم البرجي الحنفي، غفرالله له؛ الفقير سليمان عبيد، مفتي المذهب الحنفي، غفرالله له؛ الفقير محمد المسيري، الفقير أحمد عبدالله، مؤذن مسجد قرية إدكو، الشافعي المذهب؛ المحتاج إلى مولاه، سليمان الكلاف؛

الـــ..الخ، حسن عبيد، الشافعي المذهب؛ المحتاج إلى مـــولاه، الملـــك العـــادل، خادمه عباس العويضي، غفر الله له؛ الـــ..الخ، مصطفـــى محمـــد".

وكلهم من رجال الديـــن.

٧- المصدر السابق، ص٦٦، بحسب اســـتخدام العصـــر، تعـــني كلمـــة "عـــربي" "بـــدوي".

٨- **المصدر الســـابق**، المجلـــد٢، ص ص١٠١ - ١٠٢.

٩- **المصدر السابق**، المجلـــد ٢، ص٧٥.

١٠- رسالة من كليبر إلى بونابرت، بتـــاريخ ١٩ يوليـــو ١٧٩٨.

١١- رسالة من كليبر إلى بونابرت، بتـــاريخ ٣١ يوليـــو١٧٩٨.

١٢- رسالة إلى بروي، بتاريخ ٢٣ ميسيدور من العـــام الســـادس (١١ يوليـــو ١٧٩٨). رسالة إلى مينو، بتـــاريخ ١٤ ثـــيرميدور مـــن العـــام الســـادس (١ أغســـطس ١٧٩٨).

١٣- رسالة إلى اللجنة الاداريـــة للاســـكندرية، بتـــاريخ ٢٨ ثـــيرميدور مـــن العام السادس (١٥ أغســـطس ١٧٩٨).

١٤- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١ثيرميدور من العـــام الســـادس (١٩يوليـــو ١٧٩٨).

١٥- رسالة إلى لجنة تموين الإسكندرية، بتـــاريخ ٢٤ ميســـيدور مـــن العـــام السادس (١٢ يوليـــو ١٧٩٨).

١٦- رسالة إلى بونابرت بتـــاريخ ٢٩ ميســـيدور مـــن العـــام الســـادس (١٧ يوليو ١٧٩٨)، ورسالة أخـــرى إليـــه بتـــاريخ ٩ فروكتيـــدور مـــن العـــام السادس (٢٦ أغســـطس ١٧٩٨).

١٧- أوردها جـــاك جودشـــو، دون إحالـــة إلى مرجـــع، في كتابـــه، **الأمـــة العظمى**، الطبعة الثانيـــة، بـــاريس، ١٩٨٣، ص١٢٨.

١٨- رســـالة إلى مينـــو، بتـــاريخ ١٤ ثـــيرميدور مـــن العـــام الســـادس (١ أغســـطس ١٧٩٨).

١٩- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١١ فروكتيـــدور مـــن العـــام الســـادس (٢٨

أغسطس ١٧٩٨).

٢٠- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٣ فروكتيدور من العام السادس (٢٠ أغسطس ١٧٩٨).

٢١- أو "موبوءة"، انظر الرسالة إلى مينو، بتاريخ ٢٨ تيرميدور من العام السادس (١٥ أغسطس ١٧٩٨).

٢٢- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٩ فروكتيدور من العام السادس (٢٦ أغسطس ١٧٩٨).

٢٣- رسالة إلى مينو، بتاريخ ٢٦ ميسيدور من العام السادس (١٤ يوليو ١٧٩٨).

٢٤- رسالة إلى مينو، بتاريخ ١٤ تيروميدور من العام السادس (١ أغسطس ١٧٩٨).

٢٥- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٢٤ ميسيدور من العام السادس (١٢ يوليو ١٧٩٨).

٢٦- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١٧ فروكتيدور من العام السادس (٣ سبتمبر ١٧٩٨).

٢٧- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ٢١ فروكتيدور من العام السادس (٧ سبتمبر ١٧٩٨).

٢٨- نشرها باجينييه - ديزورمو (هـ)، **كليبر في الفانديه (١٧٩٣-١٧٩٤)**. وثائق نشرتها جمعية التاريخ المعاصر، باريس، ١٩٠٧.

الفصل الرابع

حملة الشام

ليس هدف حملة الشام، أو بالأحرى فلسطين، السماح بفتح طريق بري من أجل عودة تالية إلى أوروبا كما يتصور جنود بونابرت[1]، ولا تدشين زحف بطولي على الهند كما يزعم نابوليون في سانت هيلانة في تذكره الجامح لحملة مصر، بل الهدف هو إزالة الأخطار المباشرة المحدقة بالاحتلال الفرنسي لمصر وتحييد الدولة العثمانية.

بعد معركة الأهرام، يلجأ إبراهيم بك ومماليك حزبه إلى الشام ويعد الباب العالي هناك لحملة استرداد بمساعدة إنجلترا بينما يحتشد جيش عثماني آخر في رودس استعداداً لإنزال في مصر. ثم إن موانئ الساحل السوري - الفلسطيني توفر مراسي قريبة من مصر للأسطول الإنجليزي الذي يفرض الحصار على السواحل المصرية.

وإلى الرغبة في إزالة هذه التهديدات تضاف، بالنسبة لبونابرت، الرغبة في إرغام الباب العالي على الانسحاب من النزاع والاعتراف بالوجود الفرنسي في مصر، وذلك بإشعال نار انتفاضة واسعة معادية للعثمانيين في الولايات العربية للإمبراطورية.

والحال أن سوريا - فلسطين، شأنها في ذلك شأن الممتلكات العثمانية الأخرى، إنما تشهد في القرن الثامن عشر استقلالية عظيمة عن السلطة المركزية في اسطنبول. ويكمن الأساس الاقتصادي لهذه الظاهرة في الالتزامات الضريبية الواسعة (**المقاطعات**) التي تجمع

وتوحد الضرائب العقارية لعشرات من القرى وكذلك الضرائب غير المباشرة والمباشرة المختلفة المفروضة على سكان المدن. ويتولى زمام **المقاطعات** أعيان محليون يستندون إلى تضامنات عائلية واسعة أو موظفون كبار منحدرون من أقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية (خاصة البلقان) ويحافظون على مواقعهم بالاعتماد على جيوش خاصة حقيقية.

والاتجاه العام في النصف الثاني من القرن إنما يتمثل في تجميع هذه الالتزامات في أيدي عدة أشخاص، بما يخلق مراكز سلطة حقيقية. بل وأشباه دول لا تقوم، بالرغم من اعترافها بسلطة الباب العالي الصورية، بدفع المبالغ الواجبة الأداء للسلطة المركزية إلاَّ بشكل جزئي، ومع كثير من التأخر.

وهكذا تتشكل عبر القرن، في الجليل، من بحيرة طبرية إلى عكا، قوة ضاهر العمر الزيداني الذي يراكم لحسابه ولحساب عائلته **مقاطعات** الإقليم. وبفضل مهارته العقارية، ينمي زراعة محصول القطن من أجل تصديره إلى أوروبا ويصبح شريك وصديق التجار الفرنسيين المهيمنين في تجارة شرقي البحر المتوسط. كما أنه يتحالف مع سادة الجبل اللبناني والمتاولة (شيعة جنوب لبنان فيما بعد) والدروز والموارنة الذين يوجهون الجبل على أسس مماثلة.

وفي سبعينيات القرن الثامن عشر، يتمرد على السلطة المركزية بالتعاون مع الزعيم المملوكي المصري البارز علي بك الكبير الذي يحاول أن يُنشيء لحسابه إمبراطورية شامية - مصرية بمساعدة روسيا (١٧٧٢ ـ ١٧٧٤). وتفشل المحاولة بسبب الشقاقات الداخلية بين المماليك وإن كان الرأي العام الأوروبي يفسرها بأنها رغبة في إحراز استقلال مصري وخلق دولة عربية. والحال أن ضاهر، البدوي الأصل، إنما يصوره كتاب مثل فولني أو سافاري في صورة المدافع عن نهضة عربية في مواجهة الأتراك الجائرين. واسمه

معروف جيداً لقراء الصحف الأوروبية[٢]. ومن ثم فإن المسئولين عن الحملة سوف يتصورون أنهم يذهبون إلى ساحة معروفة.

وعندئذ يحرك الباب العالي ضد ضاهر خصماً قوياً، هو أحمد باشا الجزار، وهو مملوك من أصل بوسنوي. فمع تعيينه والياً على ولاية صيدا، يدمر بالكامل قوة آل الزيداني (١٧٧٦) ويمد سيطرته الخاصة على مجمل الجليل، محولاً **المقاطعات** السنوية (**الالتزامات**) إلى التزامات لمدى الحياة (**ملكانة**) لحسابه هو، ويتعين على حلفاء ضاهر في الجبل اللبناني أن يعترفوا بهيمنته. وهو يزيد دخوله عبر ممارسة سياسة احتكار لتجارة الحاصلات الغذائية، محدداً أسعارها كيفما شاء على حساب التجار الفرنسيين. وهؤلاء الأخيرون يروجون في أوروبا الأسطورة السوداء التي تصور الجزار في صورة المستبد الدموي غير المستنير بالمرة.

ولما كان غريباً عن الإقليم، خلافاً لآل الزيداني، فإنه يدعم قوته بجيش من المرتزقة الذين يتم الإنفاق عليهم عبر تكثيف استغلال الفلاحين المحليين.

ويفكر بونابرت في استثارة تمرد معاد للعثمانيين،مماثل لتمرد السبعينيات، وذلك بأن يحشد حوله ائتلاف سكان الجبل وأنصار الزيداني، ومن ثم فإنه يختار حفيداً للزيداني لحكم الجليل.

وبسبب حركة تجميع **المقاطعات** وتوجيه جزء من الإنتاج الزراعي إلى التصدير إلى السوق الأوروبية، تعرف فلسطين النصف الثاني من القرن الثامن عشر قدراً من استعادة الأمن الداخلي في مواجهة الغارات البدوية كما تعرف بوجه خاص إحياء اقتصادياً وديموغرافياً (يميل من جهة أخرى إلى التآكل في أواخر القرن من جراء فداحة الاستغلال الضريبي الذي يمارسه الجزار). والحال أن الإحياء المحسوس في الجنوب بالرغم من الضغط البدوي، والراجع إلى بُعد سادة عكا، إنما يعد واضحاً بشكل خاص في الجليل مع

توسيع زراعة محصول القطن والنهوض الملحوظ لعكا، عاصمة ضاهر ثم عاصمة الجزار من بعده. فهذا الموقع المهمل يصبح مدينة مهمة ومحصنة. ومن عكا إلى بحيرة طبريه، تشكل شبكة كثيفة من القري والكفور نواة قوة سيدي فلسطين. ومن ثم فإن هذه الأخيرة بعيدة عن أن تكون فضاء خاوياً وبكراً[٣]

ويفكر بونابرت للحظة في أن يعطي لكليبر قيادة حملة الشام التي كان من شأنها من ثم أن تكون مماثلة لحملة ديزيه في مصر العليا لمطاردة مراد بك، لكنه سرعان ما يقرر قيادتها بنفسه. وينبع هذا القرار من الأهمية السياسية للعملية ومن الهيبة التي تترتب على ظهور أسماء توراتية في البلاغات بالنسبة للرأي العام الأوروبي، وهو يفكر باستمرار في أثر الدعاية الشخصية.

وعندئذ يستأنف كليبر قيادة فرقته المرابطة في شرقي الدلتا، ومهمته الأولى هي إعداد إمدادات العملية، ثم يتعين عليه أن يشترك مع رينييه وفرقته في عمليات الطليعة في سيناء.

ويتم حشد الجيش في العريش ومنذ ذلك الحين تشكل فرقة كليبر وحدها طليعة الجيش. وسوف تكون تلك هي مهمتها حتى عكا. وخلفها، يستولي بونابرت على المدن الساحلية. وعندئذ يتراجع الجزار، ويترك في ساحة القتال القوات التي أرسلها الباب العالي ومماليك إبراهيم بك ووحدات سلطات محلية كالنابلسيين.

ومن الغريب أن هذه الحملة تكشف عن الكثير من العيوب التي سوف نجدها من جديد، بمقاييس أوسع بكثير، في الحملة على روسيا في عام ١٨١٢. فالإدارة غير فعالة والذخيرة لا تصل إلا بكميات غير كافية ولا يحيا الجيش إلاّ على موجودات المستودعات التي تركها الجيش العثماني المنسحب. ويشعر كليبر بالصدمة العميقة تجاه هذا المسلك الذي لا يعدو أن يكون رهاناً أبدياً على الحظ. وهو يرى أنه لا يجوز اللعب هكذا بأرواح الجنود وبمصير الجيش[٤].

وإذا ما صدقنا موران، الذي ينتمي إلى أركان كليبر، فإن قائده يبدأ في الاعتراض على مسلك بونابرت منذ دخول سيناء:

"في ٢٠ بلوفيوز (٨ فبراير ١٧٩٩)، تلقى الجنرال كليبر رسالة من القائد العام؛ وبعد أن فرغ من الاطلاع عليها، لم يكن هناك شك البتة في الانطباع السيء الذي خلفته عنده. وقد لزم الصمت طويلاً، ثم قطعه فجأة وانفجر غاضباً من ترتيبات القائد العام السيئة: فلا توجد أية إمدادات لعشرة آلاف رجل كان عليهم اجتياز الصحراء؛ وقد تحسس بشكل حاد هذا الوضع؛ وشجب بأعلى صوته الثقة التي يبدو أن القائد العام يضعها في القدر"[٥].

والجزار ينتظر بونابرت في عكا. ويبدأ الحصار في منتصف مارس ١٧٩٩. وتتوقف مراسلات كليبر اعتباراً من هذا التاريخ، فلابد أن جميع الاتصالات كانت تتم شفاهة. ولن يجري استئناف المراسلات إلا في ١٠ أبريل ١٧٩٩، عندما يتلقى كليبر الأمر بدعم جونو في الناصرة. ويتوجب عليه تغطية قوة الحصار في وجه جيش الغوث العثماني الذي يحتشد في دمشق.

وعلى عكس توقع بونابرت، فإنه لا يتمكن من الاستيلاء على عكا. وينجح الجزار في تنظيم مقاومة ظافرة. وهو يحصل على مساعدة من الأسطول الإنجليزي الذي يكفل له إمداداته ووصول التعزيزات. كما يرسل إليه الإنجليز مستشارين عسكريين، من بينهم فيليبو الشهير، زميل الدراسة السابق لبونابرت، والمهاجر والصديق الحميم للعميد البحري سيدني سميث الذي يقود الأسطول الإنجليزي.

أمّا الانتفاضة المعادية للعثمانيين فهي لن تنشب إلاّ إذا نجح بونابرت في الاستيلاء على عكا وتدمير قوة الجزار، ومن هنا ضراوة القائد العام في عمليات الهجوم. ويتجسد خطر حدوث إنزال في مصر من جانب الجيش الموجود في رودس بينما تنشب القلاقل في

إقليم دمنهور. وتصبح مسألة الوقت مسألة حيوية.

وتسمح مراسلات كليبر بتتبع فعل الجنرال الألزاسي في الجليل ومعركة جبل طابور. والرواية التي يقدمها نابوليون عن ذلك الفعل في سانت هيلانة هي رواية جد بعيدة عن رؤية كليبر المباشرة.

ويستمر الحصار ويصبح متزايداً باطراد في طابعه الدموي. ويلقي أصدقاء عديدون لكليبر مثل كافاريللي مصرعهم. وفي ٨ مايو ١٧٩٩، يجري استدعاء كليبر من الجليل مع جزء من فرقته وذلك للمشاركة في الهجوم النهائي على الموقع.

ويرى موران: "إن الفرقة قد استشعرت جيداً عندئذ ما سوف يُطلب منها، وراضية بالصمود لما عجز الآخرون عن الصمود له، تفانت عن طيب خاطر في الصمود للأخطار المترتبة على الهجمات التي تشنها على الموقع. وكان الرماة يجتمعون في الساحة ويجيئون بزجاجات العرق إلى رماة الفرقة لتهنئتهم ولتقديم كل ألوان التشجيع لهم على محاولتهم الأخيرة التي تظل عبثية شأنها في ذلك شأن المحاولات السابقة"(٦).

وفي عكا تنشب الأزمة الثانية في العلاقات بين كليبر وبونابرت. ولتأثره بخسارة أصدقائه، ينتقد الألزاسي القائد العام بحدة وعلانية.

ووفقاً لمارمون، فإن بونابرت، في نفاد صبره، يضغط على الضباط لكي يعلنوا بشكل سابق للأوان أن الثغرة المفتوحة في الأسوار سالكة:

"كان كليبر حاضراً وبدا صمته دليلاً على عدم الرضا عن ذلك. وقد استفزه القائد العام لكي يبدي رأيه على أمل أن يجده في صفه فأجابه كليبر: "لا شك ياجنرالي أن الثغرة سالكة، فبوسع قطة أن تمر منها"(٧).

أمّا بيرنوابيه، الذي تستوجب شهادته الحذر، فهو يقدم الرواية التالية للحدث:

"(بعد وصوله) مباشرة، قام الجنرال بزيارة بونابرت الذي أبلغه بأنه سوف يجري شن هجوم ثالث عشر. وقد اقترح الجنرال كليبر فجأة علي بونابرت أن يخرج لتفقد أعمال الحصار. وقد بدا بونابرت مرتاحاً إلى هذا الاقتراح: فخرج من خيمته برفقة جانب كبير من أركان حربه وعدة ضباط قادة. وتفقدوا جميع الأعمال بتدقيق بالغ. وبعد أن تجولوا في جميع محاور الهجوم والدفاع، قال كليبر لبونابرت، في حضور عدد كبير من المساعدين: "أيها الجنرال، لو لم أكن أرى بنفسي أن بونابرت هو القائد هنا، لتصورت أن كل هذه الأعمال قد أشرف عليها عيال". وقد تظاهر بونابرت بأنه لم ينتبه إلى الصفعة التي وجهها إليه للتو جنرال لا يعرف التملق ورأيه عميق الأثر على معنويات الجيش. فاحتفظ في أعماق روحه بالغيظ الذي أججته في صدره حدة كلام كليبر"[٨].

والحال أن مسلك القائدين المتعارض وامتناع كليبر عن كل مظهر من مظاهر التملق إنما يكمنان في أساس شعبية الأخير العظمى في صفوف الجيش وفي أساس عداوة الأول الشديدة لشخصه، ويرى لاجونكيير أن شهادة مارتان حول هذه المسألة مقنعة[٩]:

"منذ ذلك الحين، بدأت التململات ترتفع في صفوف الجيش؛ و لم يعد هناك إيمان بأن بونابرت معصوم من الخطأ؛ إذ تجري التضحية بالجنرالات وبنخبة الجنود؛ وكان هناك شخص واحد يجتذب جميع الأنظار، هو كليبر: لقد شجب دائماً حملة الشام، ورأى منذ الهجوم الأول أنه لن يتم أبداً الاستيلاء على مدينة عكا. وأسلوبه في القتال، والذي يراعي الجندي، هو انتقاد لأسلوب بونابرت الذي يسميه (كليبر) بجنرال لعشرة آلاف جندي كل أسبوع. والجيش كله يقول بأعلى صوته إنه لو كان كليبر قائداً

عاماً لتم الاستيلاء على عكا منذ وقت بعيد. ذلك هو أصل تلك الكراهية التي كان بونابرت يكنها دائما له ولأصدقائه"(١٠).

وهذه الإدانة لمسلك بونابرت نجدها كذلك في يوميات كليبر:

"إنه يقول إنه يتحمل المسئولية عن جميع الأخطاء التي ارتكبت أمام عكا. لن يكون بوسعه إعفاء نفسه منها".

"لا وجود بالمرة لخطةٍ محددة؛ فكل شيء يتم بالنط وبالقفز؛ واليوم يسوي أمورِ اليوم. فهو يزعم الإيمان بالقدر".

في عكا، إذاً، يحول الجيش حبه، من القائد العام، الذي يجري اعتباره مسئولاً عن عذاباته ونفيه، إلى شخص كليبر الأكثر إنسانية. وبونابرت يؤاخذه بشدة على هذه الصراحة التي لابد أنه يعتبرها غير ملائمة بالمرة وأحياناً خطرة على انضباط الجيش. ثم إن الصدع يصبح أكثر وضوحاً بين الوحدات القادمة من جيوش حملة ألمانيا ذات الروح الأكثر "جمهورية" والوحدات القادمة من جيش حملة ايطاليا والمتعلقة بقائدها المهيب.

والانسحاب إلى مصر رهيب، إذ يقدم صورة مسبقة لبعض جوانب الانسحاب من روسيا في عام ١٨١٢. والحدث الأشهر هو حدث الموبوءين بالطاعون في يافا، لكن الشيء المميز هو أن أحداً لا يحسب حساب المتروكين على طريق الجنود جد المنهكين بحيث يعجزون عن السير. ويسجل كليبر هذه المشاهد في يومياته. ولدى عودته إلى مصر، يهتم بنفسه بمصير الموبوءين الأحياء بالطاعون:

"حتى لا يصل إلى قلب مصر وباء معد، جرى تكليف هذه الفرقة (فرقة كليبر) بنقل المصابين الذين كانوا راقدين، وعددهم نحو مائة، تحت أكواخ قطية. وقد تم هذا النقل بأعظم نظام وبأحسن رعاية. وقد شاء كليبر أن يشرف على ذلك بنفسه، وبما أن هؤلاء المرضي، في حُمىً طائشة، كانوا يلقون بأنفسهم على ركبتيه

ويمدون إليه أيديهم كما لو كان منقذاً لهم، فقد قـال لهـم: "ياأبنـائي، إنني مهتم بكم؛ وسوف نقتسم ما لدينا؛ ولكن لا تقـتربوا مـني أكـثر من اللازم. فليس من المناسب أن أمـوت بالطـاعون". وعلـى غـرار كليبر، اهتم جونو وفيرديه بأن لا يفتقر هؤلاء التعسـاء إلى أي شـيء على هذا الطريق المهجور والمحروم مـن المـوارد"(١١).

وهنا أيضا فإن التباين قوي بين بونابرت الـذي لا يبـالي بمعانـاة وبخسارة جنوده ولكنه يتصرف مع المصابين بالوبـاء كمـا لـو كـان يتمتع بهبة لدنية شبه دينيـة تجعلـه منيعـاً في وجـه الوبـاء، وكليـبر البشري بكل معاني الكلمـة.

ومن ثم لا ترجع فرقـة كليـبر إلى القـاهرة وتسـتعيد موقعـها الذي كانت قد تحركت منه في شـرقي الدلتـا. وذلـك لأن نـزول الجيش العثماني المحتشد في رودس يصبـح الآن وشـيكاً.

حواشي الفصل الرابع

١- "لقد جرى تنبيه القوات إلى الشقاء الذي ينتظرها حتى وصولها إلى الشام، وقد تلقت هذا التنبيه بشجاعة. وسوف يكون من الصعب أن ننتزع من أذهانها وهم العودة إلى أوروبا عبر الدردنيل. وقد رأيتني ملزماً بترك هذا الوهم لها". من رسالة كليبر إلى بونابرت، بتاريخ ٢٠ بلوفيوز من العام السابع (٨ فبراير ١٧٩٩).

٢- حول هذه المسألة، انظر كتابي: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر**.

٣- حول فلسطين في القرن الثامن عشر، انظر: عبدالكريم رفيق: **ولاية دمشق**، بيروت، ١٩٦٦؛ عمنون كوهين: **فلسطين في القرن الثامن عشر**، القدس، ١٩٧٣؛ موشيه ماعوز (اشراف): **دراسات حول فلسطين خلال العهد العثماني**، القدس، ١٩٧٥.

٤- شهادة موران لها دلالتها: "في ثلاثة أيام من حرب الخنادق، جرى ضرب مدينة يافا بالمدافع وتم الاستيلاء عليها عبر هجوم خاطف. ولم يحدث قط أن كان لحملة مثل هذه البداية السعيدة التي عرفتها حملة الشام. وعند نقل النبأ إلى كليبر لم يتمكن من منع نفسه من إبداء الدهشة ومن القول: "تلك ضربة حظ أخرى!". وقد أتاح لنا الاستيلاء على هذا المكان الحصول على مؤن غذائية، حيث إن المؤن التي كنا قد عثرنا عليها في الرملة كانت قد نفدت وكانت تكفي الجيش لمدة ثلاثة أيام بالكاد؛ وبوسع المرء أن يرى ما هي المخاطر التي كنا ستتعرض لها لو كان سوء الحظ قد وضع في طريقنا عقبة ما". ملاحظات السيد الجنرال موران حول عمليات الجنرال كليبر، الفرقة السادسة، منذ النزول إلى الإسكندرية، وحول قيادته لهذا الموقع وحول حملة الشام التي اشترك فيها، حتى عودة الجيش إلى القاهرة. **ريفي ديجيبت**، ١٨٩٥، ٢، ص ص ١٤٥-١٦٠.

٥- **المصدر السابق**.

٦- المصدر السابق.

٧- لاجونكيير، المجلد ٤، ص٦٣٧.

٨- بيرنوايه، **مع بونابرت في مصر وفي الشام**، دار النشر الفرنسية، آبفيل، ١٩٧٦، ص١٦٣.

٩- لاجونكيير، المجلد ٤، ص٥٢٩.

١٠- ب.مارتان، **تاريخ الحملة الفرنسية في مصر**، باريس، ١٨١٥، المجلد ٢، ص٣٠٦.

يقدم الأمير يوجين في مذكراته رواية أكثر انحيازاً لبونابرت:

"إلى ذلك الزمن يرجع ظهور عداوة بين القائد العام والجنرال كليبر جرى ارجاعها، خطأً، إلى غيرة الجنرال بونابرت. ولكي نرجع إلى المصدر الحقيقي لسوء التفاهم هذا، يجب أن نتذكر التنافس الذي كان موجوداً، وتواصل وجوده لوقت طويل، بين ضباط جيش الراين وضباط جيش حملة ايطاليا. ولو اقتصر هذا التنافس على التباري النبيل، لما ترتبت عليه غير نتائج مفيدة للجيش الفرنسي، لكن هذا التنافس تحول، للأسف، إلى كراهية وإلى حسد وضيع، تبعاً لشخصية كل ضابط؛ والحال أن ديزيه وكليبر، القادمين من جيش الراين، مسبوقين بسمعة عسكرية جميلة، يستحقها الأول والأخير على حد سواء، قد تركا انطباعات متباينة لدى جيش حملة مصر، والذي كان الجانب الرئيسي منه يتألف من جنود وضباط جيش حملة ايطاليا السابق. وكان ديزيه محل رضاء وقد فاز بحب الجميع لأنه كان طيباً وبسيطاً وعادلاً ولا تتسرب إليه المشاعر الحقيرة. أما كليبر، خلافاً لذلك، الفظ في كلامه، والمزعج والميال إلى النقد والمعارضة، فلم يكن يتمتع برضاء أحد وقد جر على نفسه عداوة كثيرين. وكان هناك أشخاص يسرهم أن ينقلوا إلى الجنرال بونابرت، بعد تسميمها، الأقوال التي يجيز كليبر فيها لنفسه الوقوف ضده والانتقادات المتصلة التي يوجهها إلى عملياته العسكرية، وكان من بين هؤلاء الأشخاص جونو الذي، بعد أن كان مجرد مرافق للقائد العام، أصبح قائد لسواء، وكان يعمل

آنذاك في فرقة كليبر. لقد كنت شاهداً أكثر من مرة على التقارير التي كان جونو يقدمها إلى الجنرال بونابرت، وعلى إلحاحه في تأجيج غيظه، مثلما فعل مورا فيما بعد تجاه الجنرال مينو، والحال أن الجنرال كليبر، الذي نفد صبره، شأنه في ذلك شأن الجيش كله، من طول أمد حصار عكا وعدم جدوى هذا الحصار، كان قد قال في أحد الأيام إنه لا يفهم السبب في الاصرار على الوقوف أمام هذا الكوخ الخرب، وإنه، لو كان في مكان القائد العام، لطوى الخيام منذ وقت بعيد. وعندما قال أحدهم إن المسألة لها دخل بمجد الجنرال بونابرت، ردّ بنبرته الألمانية: "باه! باه! (عجباً عجباً !)، تلك بزة أنيقة عليها قليل من الغبار الذي يمكن نفضه بالإصبع". وهذا الكلام، المشرف في جوهره للقائد العام، جرى تحويره وتسميمه، شأنه شأن أقوال أخرى مماثلة، في التقارير المقدمة إليه، وبشكل أدى بالفعل إلى وقوفه ضد الجنرال كليبر. إلاّ أن من المستحيل تخيل أنه قد شعر بالحسد تجاه هذا الجنرال. فرتبته وسمعته العسكرية تضعانه فوق هذا الجنرال بكثير، وهو سبب يكفي لمنعه من مثل هذا الحسد. والطبيعي أكثر هو أن نتصور أن كليبر هو الذي كان يشعر بهذا الشعور ضد جنرال أصغر منه سناً ويشعر بالاستياء من كونه أرقى منه. ومن الانصاف أيضا القول بأن الجنرال كليبر لم تكن تعوزه الأسباب الوجيهة لتوجيه النقد إلى حصار عكا، والذي تم الاضطلاع به بقدر من الاستخفاف ودون حشد الامكانات الضرورية لمواصلته بقوة" (**مذكرات الأمير يوجين ومراسلاته السياسية والعسكرية**، باريس، ١٨٥٨، المجلد١، ص ص ٥٩-٦١).

١١- التاريخ العلمي، المجلد٥، ص٣٨٠.

الفصل الخامس

رحيل بونابرت

تؤدي حملة الشام إلى إبراز الخـــلاف بـــين كليـــبر وبونـــابرت. فالألزاسي لا يتردد في تتوجيه النقد علنـــاً إلى مســـلك قـــائده خـــلال حملة الشام [١]. وعداؤه للمشروع الاستعماري معـــروف للجميـــع.

على أن معركة أبوقير البرية سوف تعـــدل الوضـــع. وفي مســـاء الانتصار الباهر الذي أحرزه بونابرت، فإن كليـــبر، الـــذي لم يشـــترك في المعركة لأن قائده لم ينتظره، لا يسعه أن يمتنع عـــن الإعـــراب عـــن إعجابه بعبقرية بونابرت العسكرية. وسوف يخلد فيفـــان دينـــون هـــذا المشـــهد:

"قال له كليبر في لحظة حماسة وهو يعانقه: أيـــها الجـــنرال، إنـــك عظيم كالعالم، وهو ليس عظيماً بالقدر الذي يتســـع لعظمتـــك"[٢].

والتقارب نـــزيه، فكليبر يلتقي بالقائد الـــذي يتمـــنى الإعجـــاب به، ويكاد يتصالح مع مصر. وقبل أسبوع واحد مـــن رحيـــل بونـــابرت السري، يوضح له بشكل قـــاطع:

"رأيت في الأمر اليومي أن لجنتين للعلمـــاء ســـوف تســـافران إلى مصر العليا، والشائعات تذكر أنك أنـــت نفســـك ســـوف تقـــوم في وقت قريب برحلة كهذه؛ وسوف أعتـــبر أنـــك تســـدي لي معروفـــاً خاصاً لو تفضلت وسمحت لي بصحبتك. فسوف يكـــون مـــن المـــؤلم جداً لي أن أترك مصر دون أن أشاهد تلـــك الآثـــار العظيمـــة للأزمنـــة القديمة، وهل هنـــاك ظـــرف أجمـــل وأنســـب مـــن هـــذا الظـــرف لذلـــك؟"[٣].

يمكننا إذاً أن نفهم سخط وغضب كليبر في ٢٥ أغسطس ١٧٩٩ عندما يعلم برحيل بونابرت الذي يأخذه على أنه خيانة للجيش وغدر به هو نفسه[٤]. وعلاوة على خيار بونابرت الذي يجعل منه قائداً عاماً، فإنه يجد نفسه مرغماً على قبول منصب كان قد رفضه دائماً.

فهل يُعَدُّ رحيل بونابرت هرباً؟ ذلك هو إحدى التيمات الكبرى للجدل حول نابوليون والذي يميز القرن التاسع عشر الفرنسي. ويجب أولاً أن نلاحظ أن بونابرت قد فكر كثيراً في مغادرة مصر. وبعد الاستيلاء على القاهرة مباشرة، في ٢٥ يوليو ١٧٩٨، في لحظة حيرة حميمة، كتب إلى أخيه جوزيف ليطلب إليه شراء بيت له ويفكر في العودة إلى فرنسا في غضون شهرين:

"حاول أن توفر لي منتجعاً ريفياً حال وصولي، إما قرب باريس، أو في بورجونيا؛ فأنا أريد قضاء الشتاء هناك والخلو إلى نفسي؛ إنني متبرم من طبائع البشر، وأنا بحاجة إلى الوحدة والعزلة؛ والأمجاد تصيبني بالضجر؛ وينابيع الحماس تجف. والمجد بلا مذاق في التاسعة والعشرين؛ لقد استنفدت كل شيء: و لم يعد أمامي غير أن أصبح متوحداً حقاً. إنني أريد حماية بيتي: فلن أدعه أبداً لأي كان. و لم أعد أملك غير ما يقيني على ظهر الدنيا. وداعاً، صديقي الوحيد؛ إنني لم أكن قط ظالماً نحوك. وأنت تدين لي بهذا العدل، بالرغم من رغبة قلبي في أن يكون هو المدين لك به: هل تفهمني؟ تحياتي لزوجتك ولجيروم".[٥]

والواقع أن اتساع تعليمات حكومة الإدارة إنما يتيح له إمكانية العودة إلى فرنسا واختيار خلف له. وإذا كان يريد، في عام ١٧٩٩ بعد أبو قير، أن يرجع إلى فرنسا، فما ذلك إلاّ لأنه يعرف أن قدره لم يعد في الشرق.

وقد حاول جورج دوان في تقدير قدمه في ١٠ مارس و٧

أبريل ١٩٤٢ إلى المجمع العلمي المصري أن يجلو الألغاز التي تحيط برحيله[٦]. ومن المؤكد أنه قد فكر في ذلك في يونيو ١٩٤٠.[٧]

ويرى دوان، ويبدو برهانه مقنعاً، أن المسألة بدأت بمناورة سامة، قام بها العميد البحري سيدني سميث، وتستند فعاليتها على واقع حقائق مذكورة.

فمن ٢ إلى ٥ أغسطس ١٧٩٩، تجري محادثات بين الفرنسيين والأنجلو-أتراك من أجل تبادل الأسرى بعد معركة أبو قير. ويوفد العميد البحري إلي هذه المحادثات سكرتيره الخاص الذي يذهب إلى الإسكندرية ويقابل بونابرت ويذكر له أن حكومة الإدارة قد استدعته للرجوع إلى فرنسا[٨].

والواقع أن هذه الحكومة عازمة بالفعل على استدعاء بونابرت وجزء من جيشه أمام تفاقم الوضع العسكري الناشئ عن الهزائم الفرنسية في نهاية حروب الائتلاف الثاني:

"لك أن تقدر، أيها المواطن الجنرال، ما إذا كان بوسعك أن تترك مرتاحاً في مصر جزءً من قواتك وحكومة الإدارة تترك لك، في هذه الحالة، أن تعهد بقيادتها إلى من تراه مناسباً لذلك.

"وسوف تسعد حكومة الإدارة بعودتك على رأس الجيوش الجمهورية التي قدتها حتى الآن قيادة جد مجيدة"[٩].

وقرار حكومة الإدارة السري هذا، بالرغم من إرساله، لا يصل إلى مصر كما لا يسقط في أيدي الإنجليز. لكن هؤلاء الأخيرين يعرفون محتواه من خلال استخباراتهم[١٠].

وهكذا يبلغ الإنجليز بونابرت بأمر الاستدعاء. والحال أنه يفكر في الرحيل بالفعل منذ معركة أبوقير حيث يعرف عن طريق الأسرى الترك حرج وضع فرنسا [١١]. ومن الواضح أنه لا يمكنه إشعار قادة فرقه بأمر الاستدعاء هذا، وذلك بسبب مصدر علمه به. ولذا فإنه يكتفي بالإشارة إلى واجب الامتثال لأوامر قادمة من

باريس، الأمر الذي يتركهم في حالة من عـــدم التصديـــق.

والهدف الأساسي لمناورة ســيدني سميــث معــروض في رســالته إلى اللورد سبنسر بتاريخ ٩ أغســـطس ١٧٩٩:

"لقد أرسلت الســفينتين **ثيســيوس وكــاميليون** مــع ســفينتين حربيتين تركيتين كبيرتين، للتجول علــى مســافة بعيــدة مــن غــرب الإسكندرية، سعياً إلى منــع بــاي بنغــازي مــن إرســال مــؤن إلى بونابرت وسعياً إلى اعتراض سبيل الأمــيرال جــانتوم الــذي، ولــديّ أسباب لاعتقاد ذلك، سوف يحاول التحــرك مــع فرقــاطتين وحراقــة وسفينة شراعية. وربما ينجح بونابرت نفسه في الإفــلات برقبتــه مــن الطوق تاركاً القيادة لكليبر. وإذا ما حدث ذلك، فــإن كليــبر ســوف يرضخ أمام نداءات الجيش ويتفاوض مــن أجــل إعادتــه إلى الوطــن، عندما يتم حشد قوة كافية ضده لتــبرير مثــل هــذا الإجــراء... إنــه جندي وهو لا يراهن على فتــح الهنــد أو علــى خصوبــة المســتعمرة الجديدة؛ وهو يفضل لو كان على ضفاف الرايــن علــى أن يكــون في أي مكان آخر وكل الباقين يحبذون لــو كــانوا في أي مكــان آخــر على أن يكونوا في مصر. وقد حصلــت علــى براهــين علــى ذلــك خلال الاتصالات التي أجريناها مؤخراً معــهم، وســوف يكــون مــن الخسران أن لا نتمكن من ممارسة ضغط بــالغ القــوة عليــهم لدفعــهم إلى اتخاذ قرار بــالجلاء"(١٢).

لقد حلل العميد البحري حالة الجيــش المعنويــة تحليــلاً رائعــاً. وسوف نجد من جديد أصداء هذا العمل الســيكولوجي الإنجلــيزي في شقاقات القيادة الفرنسية في عهد مينو والتي ســوف تقــود إلى فشــل الحملة نفسها. وهنا يلعب (العميــد البحــري) علــى التعــارض بــين شخصيتي كليبر وبونابرت مبرزاً مهارة عظيمة جــداً في هــذا اللعــب كما أنه يستشف بشكل رائع الصفاء مسار الأحــداث التــالي.

أمّا ما لم يتمكن مــن توقعــه في ســير عمــل المصيــدة، فــهو

مشكلات التموين والإمداد التي أدت إلى شلل قوات المراقبة البحرية الإنجليزية في قبرص مدة أطول من المتوقع. والسفن المرسلة على طول الساحل الليبي لن تصل إلا بعد وقت طويل من رحيل بونابرت.

وتروج الشائعات آنذاك عن اتفاق سري بين بونابرت وسيدني سميث. وكلام نقولا الترك، الذي يراقب الوضع المصري لحساب أمراء الجبل اللبناني، يردد هذه الشائعات:

"انتقل [بونابرت] إلى الإسكندرية. وبعد أيام وجيزة، دبّر أمر السفر، وهيأ له ثلاثة مراكب. وأرسل لهم، ليلاً، عدة صناديق مملوءة بالجواهر الثمينة... وبعد ذلك التدبير، صنع وليمة عظيمة إلى الجنرال سميت، سر عسكر الإنكليز... ومن عادة الإفرنج أن، في الأيام التي لم يكن فيها حروب، فليس فيه امتناع عن بعضهم البعض. وحين حضر الجنرال سميت ساري عسكر الإنكليز، قدم له أمير الجيوش غاية الإكرام، وأعطاه هدايا جزيلة الثمن، ثم طلب منه بأن يأذن له أن يرسل ثلاثة مراكب صغار إلى بلاد فرنسا، فأذن له بذلك. وبعد رجوع ساري عسكر الإنكليز إلى مراكبه في تلك الليلة، نزل بونابرته في تلك المراكب بمن معه من الرجال، وخرج من البوغاظ بريح عاصف. وفي ثاني الأيام، بلغ خبر مسيره إلى الجنرال سميت، فعظم عليه ذلك الأمر، وأقلع بمراكبه في طلبه، فلم يجد له خبراً ولا رأى له أثراً. ونجى منهم بحسن خبرته ومزيد فطنته وسمو حكمته. وقد استغنم الفرص وفر منهم كما يفر العصفور من القفص. وبقوة المولى العزيز نجى من أعدائه الإنكليز، ووصل إلى مدينة باريز، وخلص حاله بتدبير ذلك الأمر، وكان نفوذه من عجايب الدهر"[١٣].

ويستخدم ميشليه هذه الشهادة في كتابه **تاريخ القرن التاسع عشر** ليهاجم بونابرت بعنف[١٤]، لكن غالبية

المعلقين كمدام دوستايل وستندال، خصوم أو أنصار نابوليون، إنما يعترفون بجسارة المغامرة.[١٥]

وليس هناك ما نختتم به أفضل من الاستشهاد بصفحة شاتوبريان الرائعة في **مذكرات من وراء القبر** المكرسة لهذا الحدث:

"لم يستعد المحارب قط نبرات مماثلة: إن نابوليون هو الذي ينتهي[١٦]، والامبراطور الذي سوف يأتي، سوف يكون، بلاشك، أكثر إثارة للدهشة بكثير، ولكن ما أكثر ما سيكون أكثر عرضة للمقت! إن صوته لن يعود له جرس أعوام الشباب: فالزمن والاستبداد ونشوة النعيم سوف تبدله.

"لا شك أن بونابرت كان سيشكو لو كان قد أجبر، بموجب القانون المصري القديم، على أن يعانق لمدة ثلاثة أيام الأطفال الذين تسبب في هلاكهم. لقد فكر، لأجل الجنود الذين تركهم معرضين لوهج الشمس، في تلك التسليات التي استخدمها الربان باري بعد ذلك باثنين وثلاثين عاماً لأجل كارثة في ليالي القطب الباردة الثلجية[١٧]. وأرسل وصية مصر إلى خلفه الشجاع الذي سرعان ما سوف يتم اغتياله، واختفى سراً مثلما أفلت قيصر سباحة في ميناء الإسكندرية. أما كليوباترا، تلك الملكة التي سماها الشاعر بالمعجزة التي لا سبيل إلى مقاومتها، فلم تكن في انتظاره؛ وقد ذهب إلى الموعد السري الذي حدده له القدر، وهو قوة أخرى غير مخلصة. وبعد أن ألقى بنفسه في الشرق، مصدر الشهرات الرائعة، عاد إلينا، دون أن يصعد مع ذلك إلى القدس، مثلما لم يدخل قط روما. والحال أن اليهودي الذي كان يصرخ: يا للمصيبة! يا للمصيبة! قد جاس حول المدينة المقدسة دون أن يدخل بيوتها الخالدة. إن شاعراً، هارباً من الإسكندرية، هو آخر من يصعد على متن الفرقاطة المغامرة.[١٨] إن بونابرت، الذي استولت على خياله معجزات يهودا وذكريات مقبرة الأهرام، يجتاز البحار غير عابئ ببوارجها ومهاويها: فكل شيء يمكن اجتيازه بالنسبة لهذا العملاق، الأحداث وأمواج البحر المتلاطمة"[١٩].

حواشي الفصل الخامس

١- على سبيل المثال في رسالته إلى دوجا، بتاريخ ٣ ميسيدور (٢١ يونيو ١٧٩٩): "لقد اقترفنا في الأرض المقدسة خطايا جسيمة وحماقات كبرى، إلاّ أنه يجب أن نترك ستار الظل ينسدل على هذا كله وأن نحرص على عدم رفعه، مخافة أن يعاقبنا العلي القدير، في غضبه، على تهورنا".

٢- **رحلة في مصر السفلى والعليا**، باريس، ١٨٠٣، ص٢٢٠.

٣- رسالة إلى بونابرت، بتاريخ ١ فروكتيدور من العام السابع (١٨ أغسطس ١٧٩٩).

٤- لا يعترف لاجونكيير بدقة الأقوال التي نقلها لارفيلير - ليبو (**مذكرات**، باريس، دون تاريخ (١٨٩٥؟)، المجلد٢، ص٣٤٨): "عندما وصل نبأ فرار الجنرال إلى جيشه، لم يعد بالامكان كبت الكراهية التي كان هدفاً لها. فقد انفجرت من كل حدب وصوب. وفي تلك المناسبة، قال كليبر للرماة المحيطين به، بنبرة من أكثر النبرات قتالية، وإن كان بقوة لا مزيد عليها بالتأكيد: "أصدقائي، لقد ترك لنا ذلك البـ... هنا كيلوتاته المليئة بـ.... سوف نرجع إلى أوروبا ونلقيها على وجهه!"

ورواية ديجينيت رواية أرجح: "قال: دون أن يكون بوسعي الاعتراض على ذلك، يلقون على كاهلي المسئولية عن مصر... إن الرواتب متأخرة... وقد فقد أهل البلاد عادة الدفع، ورجلنا يرحل وسط هذه الظروف ويحرق فراش القش مثل ملازم يملأ قهاوي إحدى الحاميات بضجيج عن ديونه وجهالاته" (لاجونكيير، ٥، ص٦٤٦).

٥- **المصدر السابق**، ٢، ص٢٠٨.

٦- **بولتان دو لينيستيتو ديجيبت**، ٢٣، ص١٨٥...

٧- **المصدر السابق**، ص٢٠٥: "إن الفرنسيين آنذاك لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بالارتماء على الأرض من جراء نكسة".

٨- **المصدر السابق**، ص ص ١٨٩-١٩١.

٩- **المصدر السـابق**، ص١٩٢.

١٠- **المصدر السـابق**، ص ص ١٩٤-١٩٥.

١١- لاجونكيـير، ٥، ص٤٦٠.

١٢- **بولتان دو لينيستيتو ديجيبت**، ٢٣، ص١٩٠.

١٣- لاجونكيـير، ٥، ص ٥٩٢.

١٤- "في عام ١٨٣٩ فقط، انكشف هذا السر لأوروبا عن طريـق كتـاب عـربي قرأه قليل من الناس بالرغم من أن السـيد ديجرانـج، الأسـتاذ بـالكوليج دو فرانس، قد ترجمه إلى الفرنسـية. (....) لقـد احتـاج بونـابرت إلى خمسـة وأربعين يوماً لكي ينجز هذا الاجتياز البسيط للبحر، وقـد قـال، في تفسـيره لهذا التأخير، إنه قد أخذ طريق سواحل افريقيـا الأطـول. إلاّ أن بوسـعنا أن نتصور أيضاً أنه كان ينتظر السماح لـه بـالمرور. وإذا كـان الانجلـيز قـد سوفوا في ذلك، فإن ذلك إنما يرجع إلى انهم كـانت لهـم مصلحـة في منـع جمهوريينا من التغلب على الملكيـين".

١٥- مدام دوستايل. **ملاحظـات حـول الثـورة الفرنسـية**، بـاريس، ١٩٨٣، ص٣٥٥:

"لقد تكرر القول كثيراً بأنه برحيله آنذاك خان جيشه. ولا شك أننا بإزاء نـوع من الترفع ما كان يجب له أن يسمح لجنرال بأن ينفصل على هذا النحـو عـن أولئك الذين ساروا وراءه والذين يتركهم في وقت الشدة. لكن الجنرال بونـابرت قد جازف بمواجهة الأخطار وهو يجتاز بحراً مغطى بالسفن الانجليزية؛ والمخطـط الذي دعاه إلى فرنسا كان في حد ذاته جريئاً إلى أبعد حد بحيث يصبح من الحماقة اعتباره جباناً لرحيله عن مصر. ولا يجب الهجوم على شخص من هـذا النـوع بإدانات دارجة: فكل إنسان ترك أثراً عميقا على البشر الآخرين يجب فهمه فـهماً عميقاً قبل اصدار حكم عليه."

ستندال، **حياة نابليون**، الأعمال الكاملة، لـوزان، المجلـد١١، ص٥١:

"إن الزمن هو الذي سوف يوضح لنا ماإذا كان نابوليون، كمـا أعتقـد، قـد تم استدعاؤه إلى فرنسا بناء على رأي بعض الوطنيـين الأذكيـاء أم أنـه هـو

الذي قرر اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة بناءً على تفكيره الخـــاص وحـــده. ومـــن المناسب لجميع القلوب العظيمة أن تفكر في الشيء الـــذي لابـــد أنـــه كـــان يعتمل في تلك الروح: من ناحية، الطموح وحـــب الوطـــن والأمـــل في تـــرك اسم عظيم في سجلات التـــاريخ؛ ومـــن ناحيـــة أخـــرى، امكانيـــة اعتقـــال الانجليز له أو قتله بالرصاص. أما اتخـــاذ موقـــف جـــد قـــاطع تجـــاه المســـألة استناداً إلى مجرد اعتبارات ظرفية، فهو مجـــرد تخشـــب في اصـــدار الحكـــم! إن حياة هذا الرجل هي أنشودة لعظمة الـــروح".

١٦- استشهد شاتوبريان برسالة بونابرت الوداعيـــة إلى كليـــبر.

١٧- ربما المسرح، بونابرت: "لقد طلبت بالفعل عدة مـــرات فرقـــة مـــن الممثلـــين؛ وسوف أهتم نحو خاص بإرسال فرقة إليـــك. فـــهذا الموضـــوع جـــد مـــهم للجيش وللبدء في تغيير عادات البـــلاد".

١٨- إن بارسفال – جرانميزون، الذي، إذ وصل في آخـــر لحظـــة ودون أن يكـــون قد حصل بشكل مسبق على تصريح رسمي، قـــد وجـــد صعوبـــة كبـــيرة في السماح له بالسفر. لاجونكيـــير، ٥، ص٦١٠.

١٩- **مذكرات من وراء القبر**، الجزء ٣، **حياة نابوليون، حملـــة مصـــر**.

الفصل السادس

قيادة كليبر[١]

هكذا يجد كليبر نفسه ضد إرادته قائداً عاماً لجيش الشرق .وهو يتحمل مسئولية جميع السلطات العسكرية ويتعين عليه أيضاً أن يدير بلداً واسعاً .وثقل قرار مواصلة المغامرة المصرية أو إنهائها إنما يتوقف عليه..

والظروف صعبة: فأخبار أوروبا والتي يجد الإنجليز لذة في نقلها إليه، هي أخبار كارثية وليس من شأنها إلاّ أن تؤثر علي القائد الجديد .واللوحة التي يرسمها لهذه الظروف في رسالته إلى ديزيه وبوسيلج والمؤرخة في ١٣ نيفوز من العام الثامن، هي لوحة بالغة الدلالة:

"إذا كان لابد من تطبيق الفقرة الثانية عشرة من رسالة الجنرال بونابرت على ظرف ما، فمن الواضح أن هذا الظرف هو الظرف الماثل: لقد ضاعت إيطاليا، وخرج الجيش البحري من البحر المتوسط وحوصر في ميناء بريست، وسقط الأسطول الهولندي تحت سيطرة الأعداء، ووصل الإنجليز والروس إلى هولندا، وتم دحر موللر على الراين، وجرى ترك الدفاع عن حدود الألزاس لسكانه، وانبعثت الفانديه من رمادها واحترقت ماينس .والجهاز التشريعي يقترح اعتبار الوطن في خطر ثم يتخلى عن هذا الاقتراح، ليس لأن الخطر غير موجود في الواقع، وإنما لأن المرسوم الذي يمكنه الإشارة إليه لا يتضمن أي علاج له: فما الذي يمكن أن يكون أكثر إزعاجاً من ذلك!"[٢].

وهذا الوضع الدرامي لا يمكن إلاّ أن يدفع الوطني الألزاسي إلى التضحية بمصر حتى يتسنى له نجدة الوطن الذي يتعرض للخطر:

"إنني أعتقد أن عليَّ (...) السعي إلى الخروج من بلد لا يمكنني، من أكثر من زاوية، الاحتفاظ به؛ وهو أمر لا يبدو حتى أن هناك من يهتم به في فرنسا، اللهم إلاَّ لمجرد البرهنة[٣] على فتحه .إن الأمل في تعزيز سريع وكاف قد دفعنا إلى العمل على كسب الوقت، إلاَّ أنه مع دمار الأمل، فإن الوقت الذي نقضيه هنا هو وقت ضائع بالنسبة للوطن: فلنسارع إلى أن نقدم له عوناً لا يملك هو تقديمه إلينا"[٤].

والجيش نفسه لم يعد يحتمل وجوده في مصر .بل كان قد أبدى بالفعل تذمره الشديد في عهد بونابرت .ورحيله، الذي جرى اعتباره تخلياً، قد وجه ضربة رهيبة إلى المعنويات بالرغم من بيانات كليبر التي تتحدث عن احتمال عودة قريبة، وبالرغم من الترحيب باعتلائه المنصب الأعلى.

وتتكاثر التمردات، خاصة في دمياط وفي الإسكندرية .والحال أن كليبر يقمعها بقوة .لكن هذا لا يمنع قيام جزء من حامية العريش، التي يحاصرها الأتراك، برفض الإذعان لأوامر الضباط وبرفع راية الاستسلام في ٢٩ ديسمبر ١٧٩٩[٦].

كما يرجع سخط الجيش إلى الوضع المالي الكارثي: فالقوات لم تحصل على مرتباها منذ عدة أشهر.

وسوف يتجه كليبر، منذ توليه القيادة، إلى إجراء مسح شامل للوضع .وهذا المسح يقوده إلى شجب التركة الكارثية التي خلفها سلفه .ورسالته إلى حكومة الإدارة، بتاريخ ٤ فانديميير من العام الثامن (٢٦ سبتمبر ١٧٩٩) ليست غير قرار اتهام طويل ضد بونابرت . ولكي يعزز دعواه أكثر ما يمكن، فإنه يقدم تقديراً متشائماً جداً للإمكانات العسكرية[٧] .ومن سخريات القدر أن

الإنجليز سوف يعترضون سبيل هذه الرسالة ويستولون عليها ويسلمون بصحة الأرقام التي يقدمها كليبر. ومن ثم يصبحون بدورهم ضحية لمناورة تخدير غير مقصودة.

والواقع أن الوضع في أوروبا والحالة المعنوية للجيش والمحنة المالية[٨] هي التي تشكل دوافع كليبر بأكثر بكثير من حالة الإمكانات الفعلية لقواته المقاتلة .فالشيء الأساسي هو أنه لم يعد يؤمن بأهمية الحملة:

"إن إنشاء مستعمرة دون حكومة مستقرة، ودون بحرية، ودون أموال، بينما الحرب القارية المرعبة قاب قوسين أو أدنى، هو غاية الجنون؛ فهذا يعني الاضطلاع بمحاصرة موقع دون هيمنة في المعركة ودون ذخيرة حربية"[٩].

ولتقليل الضرر، ينبغي من ثم التفاوض على جلاء يحفظ الشرف العسكري كما حدث فيماينس، قبل ذلك بسبع سنوات. لقد أصاب سيدني سميث الرؤية.

وقد جرت الاتصالات الأولى منذ أكتوبر ١٧٩٩ .وفي ٢٨ نوفمبر، يحصل العميد البحري الإنجليزي على تفويض من الباب العالي بتمثيله .ويجري تفويض ديزيه، المناوئ لمبدأ الجلاء، وإن كان يلتزم الطاعة (يريد كليبر بذلك إشراك رفيقه في السلاح في قرار الانسحاب) وبوسيلج (عن الجانب الفرنسي) .ويؤدي سقوط العريش إلى التعجيل بالعملية مع اقتراب الجيش التركي . ويجري توقيع اتفاق العريش في ٤ بلوفيوز من العام الثامن (٢٤ يناير ١٨٠٠)، وهو ينص على جلاء مشرف وعلى عودة الجيش الفورية إلى أوروبا حيث يمكنه المشاركة في العمليات الحاسمة لعام ١٨٠٠.

وفي ذلك اليوم، يجد كليبر نفسه موزعاً بين مجده ومايعتبره مصلحة فرنسا العليا:

"مصلحتي الشخصية وحدها هي التي كانت تتطلب أن

أخوض معركة، ولذا فقد نمت طول المساء وقراري هو خوضها، وما أن جاء الصباح، مع استيقاظي، حتى أوحت لي أفكار أكثر هدوءاً وتعقلاً بأنه لابد للمرء من التضحية بمجده الشخصي لأجل الصالح العام، دون أن يوقفه عن ذلك حتى ماينتظره من عدم إنصاف"(١٠).

وفي اللحظة الأخيرة يرفض سيدني سميث ضم توقيعه إلى توقيع المندوبين العثمانيين .فهو يرى أنه لم يحصل على تفويض من حكومة لندن باتخاذ مثل هذا القرار .وهو يرى أن دوره لم يتجاوز الوساطة .ومن ثم فإن الاتفاق لا يلزم إلاً الفرنسيين والعثمانيين.

وبعد ذلك بوقت قصير، يعرف كليبر نبأ انقلاب ١٨ برومير واستيلاء بونابرت على السلطة .وهذا النبأ تنشره أولاً الصحف الأجنبية التي ينقلها الإنجليز في ١٤ فبراير ١٨٠٠ .ويرى كليبر أنه قد فات الأوان الآن للتراجع عن رأيه:

"ليس هناك ما يدعو الجنرال بونابرت إلى الخوف مني، فهو الآن، بدلاً من أن يكون طرفاً، أصبح قاضياً في مسألة يعرفها مثلما أعرفها تماماً، وإذا كان عادلاً، فلابد للجيش ولي أيضاً من توقع الاستقبال الأكثر تميزاً .وإذا كان غير عادل، فإنه سوف يجر العار على نفسه بالرغم من قوته وعندئذ فإن جريرة ذلك سوف تكون من عمله"(١١).

ويتأكد النبأ بوصول لاتور-موبور، الذي أرسله القنصل الأول لإبلاغ جيش الشرق بتغير النظام .وفي تلك الأثناء، مستفيداً من وقف القتال، يرجع ديزيه إلى أوروبا ليلقى هناك أيضاً مصيره.

ويشعر كليبر الآن بأن الجمهورية لم تعد غير كلمة فارغة من المعنى وبأنه لا مكان له في النظام النابوليوني الآخذ في التشكل:

"لابد للأمر من أن ينتهي على هذا النحو، عاجلاً أم آجلاً، لا فرق .ولا فرق أيضاً بين أن يكون الاسم هو جاك أو بول،

مادمنا سوف نكون قادرين على أن نواصل الكتابة على رأس رسائلنا: **الجمهورية الفرنسية، الحرية، المساواة،** فهذا هو الشيء الأساسي؛ وأظن تماماً أن المرء لن يكون أكثر مدعاة للسخرية لو طالب بما هو أكثر من ذلك .ولكن عليكم أن تراهنوا، أنتم أيها الفرنسيون في مصر، على مدد سريع قوامه خمسة عشر ألف رجل، وسط كل هذا الصخب ووسط حرب قارية أكثر هولاً مما سبق في أي وقت، دون مال ودون بحرية .فالمطلوب هو الاعتراف بأننا أحسنا اختيار اللحظة لإقامة مستعمرتنا؛ وكلما أمعنت النظر في العملية التي وضعتُ للتو حداً لها، كلما زاد اقتناعي بأن الأجيال القادمة سوف تمنحني إكليلاً لأنني واتتني الشجاعة لإيجاد مخرج معقول من مشروع أرعن تخلى عنه صاحبه بجبن .إلاّ أنه إذا كان الملك ينظر وإذا كان عادلاً، فسوف يقول إن هذا صحيح؛ أما إذا كان غير عادل، فالجريرة جريرته، والأمر سيان عندي"(١٢).

وتشير يوميات كليبر بوضوح إلى أن انقلاب ١٨ برومير هو في نظره بداية استبداد جديد، فالجمهورية "لم تعد موجودة، على الأقل وفقاً للمعنى الذي يرتبط بهذه الكلمة".

على أن كليبر لن يحارب النظام الجديد:

"إنني لن ألتقط أبداً من الوحل شارة اليعاقبة الدموية وإنني لأجد أن مما لا يليق بي -- بعد الدور الذي أجبرني القدر على لعبه في هذه الثورة -- تأمين سيد ولو للعبيد".

كما أنه لن يخدمه:

"- وهل ستخدم في ظل حكومة كهذه؟

"- لا، مالم أُجبر على ذلك.

"- هذا غريب.

"- أبداً .إن بوسع أكلة أن تكون لذيذة تماماً لأربعة وعشرين مليون نسمة ومع ذلك قد أتقزز منها كثيراً.

"- وما الذي سوف تفعله في هذه الحالة؟
"- سوف أختار من العالم المكان والحكومة الأكثر ملاءمة لي .إن نظامه، الذي يختاره الناس بحرية، بصرف النظر عن ماهيته، سوف يبدو لي أقل فجاجة".

ويحترم كليبر احتراماً صارماً بنود اتفاق العريش .وتدريجياً تخلي القوات الفرنسية الوادي لتتجمع في القاهرة بينما يتخذ الجيش العثماني مواقعه على مقربة من عاصمة مصر.

لكن الحكومة الإنجليزية ترفض الموافقة على الاتفاق الذي لم توقع عليه: ورسالة كليبر الشهيرة إلى بونابرت تدفعه إلى الاعتقاد بأن جيش الشرق على وشك الهلاك وأنه على وشك الاستسلام دون شروط في حين أن تجميع القوات الفرنسية في القاهرة إنما يسمح في الواقع بتحقيق الحشد، الذي يشكل مفتاح الانتصار في العصر الثوري والإمبراطوري.

ويحاول كليبر وسيدني سميث التسويف، لكن العثمانيين، واثقين من حسن نواياهم، لا يقبلون وقف حركتهم الرامية إلى احتلال مصر .وتصبح المواجهة حتمية.

وفي ٢٧ فينتوز من العام الثامن (١٨ مارس ١٨٠٠) يبلغ كليبر الجيش بالرفض الإنجليزي:

"أيها الجنود،

إليكم الرسالة التي وجهها إليّ القائد العام للأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط:

"على متن سفينة صاحب الجلالة **الملكة شارلوت**، في مينوركا، في ٨ يناير.

سيدي

بالنظر إلى أنني قد تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة بعدم الموافقة على أي اتفاق مع الجيش الفرنسي الذي تقودونه في

مصر وفي سوريا، اللـــهم إلاَّ في حـــالة إلقائـــه السلاح واستســـلامه كأسير حرب وتخليه عن جميع الذخائر في مينـــاء ومدينـــة الإســـكندرية للدول المتحالفة، وفي حالة حـــدوث استســـلام، بعـــدم الســـماح لأي جنود بالعودة إلى فرنسا مالم يكونوا مبادلين، فـــإنني أرى لزامـــاً علـــىّ إبلاغكم بأن جميع السفن التي يوجـــد علـــى متنـــها جنـــود فرنســـيون والتي تبحر من هذا البلد بموجب جوازات سفر موقعـــة مـــن جـــهات أخرى غير الجهات التي تملك حق منحـــها، ســـوف يجبرهـــا ضبـــاط السفن التي أقودها على العـــودة إلى الإســـكندرية، وأن الســـفن الـــتي سوف تُقَابَلُ عائدة إلى أوروبا،بموجب جـــوازات ســـفر ممنوحـــة بنـــاء على اتفاق خاص مـــع إحـــدى الـــدول المتحالفـــة، ســـوف يجـــري الاستيلاء عليها وسوف يعتبر جميع الأفـــراد الموجوديـــن علـــى متونهـــا أسرى حرب.

كيث"

"أيها الجنود

إننا سوف نرد علـــى مثـــل هـــذه الرســـالة الوقحـــة بـــإحراز انتصارات، استعدوا للقتـــال.

كليبر"[١٣]

ويسحق كليبر الجيش العثماني في هليوبوليـــس (عـــين شمـــس)، ويستعيد زمام القاهرة الثائرة بعد عدة أيام مـــن المعـــارك الرهيبـــة وفي غضون وقت قصير يعيد فتح مصر كلها .وهو يتفاهم مـــع مـــراد بـــك الذي يتحمل المسئولية عن إدارة مصر العليا لحســـاب الفرنســـيين.

وهكذا فإن كليبر، مدفوعاً بقوة الأشـــياء، يصبـــح مـــن جديـــد سيد البلد.

وإذا كان قد كره هذه القيادة العامة إلى درجة أنـــه أعلـــن ذلـــك أمام الجيش[١٤]، فإن كليبر سوف يترك مـــع ذلـــك بصمـــة مهمـــة في تاريخ مصر.

فنحن ندين له بالقرار المهم الخاص بتأليف عمل ضخم حول البلد، هو ماسوف يحمل بعد ذلك اسم **وصف مصر**، والذي سوف يكون أعظم تركة للحملة .والواقع أنه يأمر في ١ فريمير من العام الثامن (٢٢ نوفمبر ١٧٩٩) باجتماع اللجان سعياً إلى:

"الاحتشاد لنشر المعارف والتنافس في إقامة أثر أدبي جدير بالاسم الفرنسي.

"ولذا فإنني أرغب في اتخاذ تدابير فورية للتأكد من تحرير الأعمال المختلفة لتوزيع المواد وتحديد من سوف يتولى المسئولية عن تنظيم مجمل هذه اللوحة الجميلة والربط بين جميع أجزائها.

"وسوف يستشعر المعهد ضرورة مقدمة عامة ناجزة، كما يتوجب على جميع الفنانين مراعاة أن الآثار والرسوم المتحدة النوع يجب أن تتعامل معها يد واحدة، عندما يتصل الأمر بنقلها إلى من سيتولى نقشها"(١٥).

وبحكم تحمله أعباء الإدارة، فإنه يحاول إعادة تنظيم الشئون المالية للبلد .وفي ٢٨ فروكتيدور من العام السابع (١٤ سبتمبر ١٧٩٩) يقسم مصر إلى ثماني دوائر، وفي اليوم التكميلي الثاني للعام السابع (١٨ سبتمبر ١٧٩٩) خاصة يلغي مجمل **الالتزامات** في القرى المصرية مستعيداً بذلك الصلة المباشرة بين الفلاح (أو شيخ القرية على أية حال) والدولة .كما أن مصادرة بونابرت لثروات المماليك وتحويلها إلى ملكية عامة وقرار كليبر الذي لن يجري تطبيقه إلاّ جزئياً وعمل خلفه الإصلاحي سوف توجه كلها ضربة قاضية إلى نظام **الالتزام** .ومحاولة الاسترداد العثماني بعد ١٨٠١ وعمل محمد على سوف ينجزان العملية وسوف يتباين تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي عن تاريخ البلدان العثمانية الأخرى.

والحال أن مينو، وهو نصير للنظام الاستعماري منذ البداية، إنما يعارض تحرك كليبر في اتجاه الجلاء .والعلاقات تتوتر آنذاك بين

الرجلين اللذين يعرف أحدهما الآخر منذ الفانديه .ويستفيد الأول من استعادة الاتصالات مع أوروبا بعد اتفاق العريش لكي يندد لدى بونابرت وحاشيته بمسلك كليبر.

ويسمح استرداد مصر بعد معركة هليوبوليس بتحسن لأحوال الجيش المالية، اعتماداً على غرامات حربية فادحة مفروضة على السكان الحضريين وخاصة على الأعيان بمن في ذلك أكبر العلماء كالشيخ السادات .وهذا الأخير يتم ضربه بالعصا لرفضه دفع جزء من غرامته.

واستيلاء بونابرت على السلطة في فرنسا يعني أن سلطة قوية توجد الآن في فرنسا .وترمز انتصارات ماسينا في خريف ١٧٩٩ إلى حدوث تحسن عسكري لحساب فرنسا في أوروبا.

وتتعزز معنويات الجيش من جراء موقف الإنجليز في مسألة اتفاق العريش ومن جراء انتصار هليوبوليس .ولا يعود الجلاء وارداً في جدول الأعمال.

ومن ثم يمكن للمشروع الاستعماري أن يصبح وارداً من جديد. ويضغط مينو في هذا الاتجاه لدى كليبر، في ١٣ بريريال من العام الثامن (٢٣ مايو ١٨٠٠):

"أجل، قائدي الجنرال، إذا كان الاستسلام الذي تم في العريش، في رأيي، خطأً سياسياً، فإن الانتصار الباهر الذي أحرزتموه وفتحكم الجديد لمصر، قد كللكم بالمجد .ولا يوجد في العالم من لم تراوده الرغبة في عمل كل مافعلتموه.

"قائدي الجنرال، إنني لا أود إلاَّ أن أكون رفيقك في المجد، ومعاونك، مثل كل الضباط القادة الذين يعملون تحت إمرتك. ولتتذكر أنك كنت وسوف تكون مؤسس مستعمرة رائعة إذا ما تسنى لفرنسا على أية حال أن تحتفظ بمصر عند التوصل إلى الصلح العام"(١٦).

والحال أن رد كليبر المؤرخ في اليوم نفسه يمكن اعتباره وصيته السياسية:

"تلقيت رسالتك، أيها المواطن الجنرال .إن ذهولي لا حد له لأنني مازلت إلى اليوم لا أعتقد أن اتفاق العريش كان خطأ سياسياً، ولأنني لا أعتقد أن الانتصار الذي أحرزه الجيش يمكن أن يكون موضوعاً للزهو، ولأنني مازلت إلى اليوم على إيمان بالغ العمق بأنني قد تمكنت، عن طريق هذه المعاهدة، من إيجاد مخرج معقول من المشروع الأكثر رعونة، ولأنني مازلت إلى اليوم على اقتناع بأننا لا يمكننا الأمل في أي عون من فرنسا، وبأننا لن نشكل مستعمرات في مصر أبداً أو على الأقل خلال هذه الحرب، ولو لمجرد أن زارعي القطن وزارعي النخل لن ينتجوا بسرعة جنوداً وحديداً مسبوكاً (...) وفي جميع الحالات، سننتهي عند هذا الحد مناقشاتنا السياسية .إنك، أيها الجنرال، تدير وجهك صوب الشرق، أمّا أنا، فإنني أدير وجهي نحو الغرب؛ ونحن لن نتفق أبداً"(١٧).

ومع تحويل وجهه صوب الغرب، يواصل كليبر إعادة تنظيم مصر .وبعد ذلك بثلاثين سنة، فإن كُتّاب كتاب الشهادات الذي يحمل عنوان **التاريخ العلمي** سوف يواصلون تذكر ذلك:

"في هذه السلسلة من الأعمال المهمة، أبدى كليبر ذكاءً ونشاطاً يكشفان عن إنسان جديد، عن عبقرية أوسع مما كان متصوراً حتى ذلك الحين .لقد جاء يوم الامتحان: ويمكن القول إن المسرح قد تغير بالنسبة له بقدر تعاظم دوره"(١٨).

وفي ١٤ يونيو ١٨٠٠ في مارينجو، يبدي بونابرت قوته الجديدة في وجه الجيوش النمساوية .ومع أن المعركة كانت غير مؤاتية في البداية، إلاّ أنه يتم كسبها في النهاية بفضل عمل ديزيه الذي يلقى مصرعه في المعركة .وعندئذ تصبح سلطة القنصل الأول وطيدة بشكل حاسم.

وفي ذلك اليوم، تحدث دراما أخرى في مصر .ومن الأفضل هنا تتبع رواية الجبرتي، كاتب الأخبار المصري:

"وقعت نادرة عجيبة، وهو أن ساري عسكر كلهبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية، فدخل عليه شخص حلبي وقصده، فأشار إليه بالرجوع وقال له مافيش وكررها فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها، فلمّا دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمني أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً، فصاح رفيقه المهندس، فذهب إليه وضربه أيضا ضربات وهرب"(١٩).

ويقضي كليبر نحبه بعد ذلك بوقت قصير متأثراً بجراحه .وبعد استجوابه وتعذيبه، يعترف سليمان الحلبي بعمله مبرراً إياه بالجهاد. وسوف يبين التحقيق أنه لم يكن له شركاء من خارج عدد من علماء الأزهر الذين كان قد أفصح لهم عن نواياه وحاولوا إثناءه عنها دون أن يقوموا مع ذلك بالوشاية به.

وسوف يخلف مينو كليبر وفقا لقاعدة الأقدمية .وسوف تتولى محكمة عسكرية محاكمة سليمان وإثبات التهمة الموجهة إليه، وهو إجراء سوف يثير دهشة الجبرتي (٢٠)، في حين أن الفرنسيين، التزاماً منهم، دون شك، بالأعراف المحلية، سوف يحكمون بحرق يده وخوزقته .وفي ١٧ يونيو ١٨٠٠، سوف يشيع الجيش قائده في جنازة مهيبة ويشهد بعد ذلك خوزقة قاتله(٢١)

وسوف يقام حفل تأبيني مشترك لديزيه ولكليبر في الأول من فانديميير من العام التاسع (عيد الجمهورية، ٢٣ سبتمبر ١٨٠٠) في باريس، وسوف يتلو جارا في ذلك الحفل تأبينه للجنرالين.

وبعد استسلام القاهرة في عام ١٨٠١، سوف يتولى بيليار نقل رفات كليبر إلى فرنسا .والحال أن القنصل الأول والإمبراطور

بعد ذلك (نابوليون)، الذي من المؤكـد أنـه يشـعر بالضغينـة (تجـاه كليبر)، سوف يترك جثمان كليبر راقداً في قصـر إلـف المطـل علـى مارسيليا .وسوف يـأمر نـابوليون بـالبحث عـن يوميـات كليـبر لإعدامها، لكن داماس ينجح في إخفائـها . والحـال أن هـذا الأخـير هو الذي سوف يتمكن، في عام ١٨١٨، من الحصـول مـن حكومـة لويس الثامن عشر على تصريـح بنقـل رفـات البطـل الألزاسـي إلى ستراسبورج، حيث سيتم دفنها في الكاتدرائيـة. وفي عـام ١٨٣٨، في ظل لوي فيليب، سوف يقام النصـب التذكـاري الحـالي وفي أواخـر القرن سوف يصبح كليبر هو المرجع الأعظـم للألزاسـيين المتمسـكين بالجمهورية الفرنسـية.

أمَّا فيما يتعلق بسليمان الحلبي، فـإن:

"الجراح لاري الذي كان قد أخذ جثته، ثم قام بتشـريحها، قـد سلمها لدى عودته من مصـر إلى مجلـس كليـة الطـب في بـاريس. وكما يمكن للمرء أن يرى، فإن علماء فراسة الدمـاغ الحديثـين عندنـا قد درسوا جمجمته، والواقع أن علامـات الإجـرام والتعصـب الديـني قد ظهرت جد واضحة عليـها"[٢٢]!

وبعد عرضها على أجيال من طلبة الطب، توجد الآن رفات قـاتل كليبر في متحف تاريخ الإنسان في باريس..

حواشي الفصل السادس

١- تخرج قيادة كليبر عن حدود هذا العمل المكرس للعلاقات بين كليبر وبونابرت .ونجد في **كليبر ومينو** لروسو (باريس، ١٩٠٠) مجموعة مختارة ممتازة من رسائل كليبر خلال تلك الفترة.

٢- روسو، ص ص ١٧٥- ١٧٦.

٣- إشارة إلى مناقشة برلمانية في مجلس الخمسمائة في ٢٩ أغسطس ١٧٩٩ حول تهمة "إرسال أربعين ألف فرنسي إلى صحراء بلاد العرب"، ج. ويت، **سقوط العريش**، القاهرة، ١٩٤٥، ص١٦١ . وسوف يأمر كليبر بنشر مقتطفات من المناقشة في **الكوريبه دو ليجيبت**، ٩ برومير من العام الثامن (٣١ أكتوبر ١٧٩٩).

٤- روسو، ص ١٧٦.

٥- على سبيل المثال، في عيد الجمهورية في الأول من فانديمير من العام الثامن (٢٣ سبتمبر ١٧٩٩): "لكن راياتكم، يارفاق السلاح البواسل، مكللة بأكاليل الغار، وما أكثر الأعمال التي تحتاج إلى إنجاز . وما أكثر الأمجاد التي تتطلب ثمناً . لحظة مثابرة أخرى، وأنتم مستعدون لبلوغ ونيل الإنجاز والمجد؛ لحظة أخرى، وسوف تمنحون العالم سلاماً دائماً .بعد أن حاربتموه" (روسو، ٥٩)

٦- انظر دراسة ويت التي أشرنا إليها أعلاه.

٧- انظر النص الكامل والتعليقات عليه في **كليبر في مصر**، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٨، الجزء٢، ص ص ٥١٥- ٥٣٢.

٨- رسالة إلى ديزيه وبوسيلج، بتاريخ ٢٠ نيفوز من العام الثامن (١٩ يناير ١٨٠٠): "لن أحدثكما عن حالة الشئون المالية . إنها من السوء بحيث إنني لا أتابعها من يوم ليوم، بل من هذه اللحظة إلى اللحظة التي تليها" (روسو، ص١٩٨).

٩- رسالة إلى بوسيلج، بتاريخ ١٥ فينتوز من العام الثامن (٦مارس ١٨٠٠).
١٠- رسالة إلى دوجا، بتاريخ ٥ بلوفيوز من العام الثامن (٢٥ يناير ١٨٠٠)، روسو، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤.
١١- رسالة إلى أوجوست داماس، بتاريخ ٢٥ بلوفيوز من العام الثامن (١٤ فبراير ١٨٠٠)، روسو، ص٢٢٢.
١٢- رسالة إلى دوجا، بتاريخ ٩ فينتوز من العام الثامن (٢٨ فبراير ١٨٠٠)، روسو، ص٢٢٨.
١٣- **المصدر السابق**، ص ص ٢٤٦- ٢٧٤.
١٤- أمر يومي بتاريخ ٧ بلوفيوز من العام الثامن (٢٧ يناير ١٨٠٠): "أيها الجنود! لو كنت قد استشرت في تكليفي بحمل العبء الذي خلفه لي الجنرال بونابرت، فإن من المؤكد أنني ماكنت لأقبل ذلك البتة، لأنني أشعر شعوراً بالغ القوة بأن قواي لا تتناسب البتة مع أهمية الموقع الذي أحتله، في ظروف جد صعبة، لكنكم تعرفون أنني لم يكن بوسعي الاختيار" (**المصدر السابق**، ص٢٠٥).
١٥- رسالة إلى رئيس المعهد المصري، بتاريخ ١ فريميير من العام الثامن (٢٢ نوفمبر ١٧٩٩)، **المصدر السابق**، ص١٢١.
١٦- رسالة من مينو إلى كليبر، بتاريخ ٣ بريريال من العام الثامن (٢٣ مايو ١٨٠٠). **المصدر السابق**، ص٢٩٩.
١٧- رسالة من كليبر إلى مينو، بتاريخ ٣ بريريال من العام الثامن. **المصدر السابق**، ص ص ٣٠١-٣٠٢.
١٨- **التاريخ العلمي**، المجلد٨، ص٢.
١٩- الجبرتي، **يوميات أحد أعيان القاهرة**، ترجمة جوزيف كوك، باريس، ١٩٧٩، ص٢٤٨.
٢٠- "قبضوا عليه وقرروه و لم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مكمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه

السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندي البرصلي الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية" (**المصدر السابق**، ص٢٥٠).

٢١- يقدم متذمر **طبيب الحملة** لبلزاك الرواية التالية لذلك الحدث: "اغتيال كليبر على يد مصري جرى إعدامه بوضع خازوق في مؤخرته، وهو أسلوب الإعدام في ذلك البلد؛ لكن ذلك الأسلوب يسبب كثيراً من العذاب، مما دفع جندياً مشفقاً على المجرم إلى أن يقدم له قرعته، وما أن شرب المصري من الماء حتى قلب بصره بمسرة لا نهائية" . **الكوميديا الإنسانية**، مكتبة لابليّاد، باريس، المجلد ٩، ص٥٢٦.

٢٢- **التاريخ العلمي**، المجلد٨، ص ص ٤٠- ٤١.

الفصل السابع

كليبر وبونابرت

شخصية كليبر جد جذابة: فنـزاهته العظيمة ومحبته للمجد التي يكبح غلواءها عزمٌ على توفير دماء جنوده، ليس لهما من هدف غير حماية الوطن .وهو صادق حين يؤكد:

"أما فيما يتعلق بي، فلا أهمية تذكر للمكان الذي يجب عليّ أن أحيا فيه أو أموت فيه شريطة أن أحيا لأجل مجد جيوشنا وأن أموت على نحو ماعشت"[1].

والشرف بالنسبة له قيمة جوهرية:

"إنني لم آت البتة إلى مصر لكي أكون ثروة .وقد تمكنت إلى الآن من احتقارها أينما كنت .على أنني لن أسمح أبداً مع ذلك بإحاطتي بأية شبهة" [2].

وهذا الموقف "الجمهوري" الذي ربما كان شائعاً في بداية الثورة، إنما يصبح نادراً بشكل مطرد في عصر حكومة الإدارة، فتحول الجيش الثوري إلى جيش محترف يحيا على حساب البلدان المفتوحة قد أدي إلى هبوط للأخلاق العامة لكبار الضباط الذين يثرون على حساب البلد .والتباين واضح بالفعل بين كليبر الذي ظل فقيراً بعد حملات ألمانيا وفاتح إيطاليا الذي اغتنى من جراء فتحها .ويذكر نابوليون في سانت هيلانة:

"حيث إن كليبر كان قد تناول العشاء عندي مرتين أو ثلاث مرات لدى العودة من إيطاليا وحيث إنه كان بلا مال، فقد طلب إلى كافاريللى أن يحدثني في ذلك .وقد رد كافاريللي بأن من

الأفضل أن يتحدث هو بنفسه إليّ في ذلـــك؛ وبـــأن مـــن المرجـــح أن الجنرال بونابرت الذي كان قد أرسل ملايـــين كثـــيرة إلى فرنســـا هـــو رجل غني جداً وبأنه سوف يسعده أن يساعد كليـــــبر.

"والواقع أن هذا الأخير قد تحدث إليّ في الأمـــــر بعـــد العشـــاء، فقال لي إنه يسكن مع مـــورو في شـــايو، وأن لا مكافـــأة هنـــاك وأن حكومة الإدارة قد تركته في عوز .وعلـــى خـــلاف عـــادتي، وجدتـــني مضطراً إلى ســـؤاله:

هل أنت بحاجة إلى مـــال؟

فقال كليبر: أعترف لك بذلـــك.

فقلت: حسناً، مادام عندي مال، فلن تفتقر إليـــــه.

وأعطيته ألف لوي .فكتـــب كليـــبر إيصـــالاً لم أشـــأ رفضـــه ثم مزقته بعد ذلـــك"[٣].

ومن جهة أخـــرى، فـــإن المـــال بالنســـبة لبونـــابرت لم يكـــن هدفاً في ذاتـــه بـــل مجـــرد وســـيلة لتحقيـــق طموحاتـــه .وفي هـــذه الحالة، فإنه يسعى إلى اســـتمالة كليـــبر.

وكليبر ليس مجرد جندي .فهو رجل مـــن أبنـــاء زمـــن التنويـــر. وهو، في مصر، يقدر تقديراً عظيمـــــا صحبـــة أعضـــاء لجنـــة العلـــوم والفنون كما يقـــدر جنـــود الأســـلحة الفنيـــة .وهكـــذا يكتـــب إلى بونابرت بشأن الرحيل عن الإسكندرية من جـــانب سيســـيل وكونتيـــه اللذين علاوة على عملها لأجل الجيـــش:

"مستفيدين حتى من أوقـــات فراغـــهما، (....) كانـــا يجريـــان حول فنون وحرف البلد أبحاثـــاً مليئـــة بالاهتمامـــات ورســـوماً جـــد أخاذة. إنني لأشعر بأسف لا حد له علـــى افتقـــاد هذيـــن الفنـــانين، فكثيراً ماأسهما في إزالة التشوش مـــن أفكـــاري"[٤]

وكذلك، حول رحيل ضباط ســـلاح المهندســـين، يتحـــدث إلى كافاريللى على النحو التـــالي:

"على أن هذا هو ما يؤلمني، فأنت تعرف أنني أحب كثيراً أن تحيط بي شبيبتك الرائعة"(٥)

وقد رأينا بالفعل الدور الذي لعبه كليبر في نشأة كتاب **وصف مصر.**

والممتلكات الوحيدة التي كانت لها قيمة بالنسبة له هي بعض الكتب والأسلحة النادرة(٦). وهو يستفيد من إقامته في مصر لكي ينهي كتابة ذكرياته عن الفانديه ولكي يسجل ملاحظاته حول الناس والأماكن في مصر. وتشهد يومياته على بداية تأمل حول مكانة الثورة في تاريخ الإنسانية. وشأنه في ذلك شأن بونابرت، فإنه يستلهم **أطلال** فولني وفكر كوندورسيه؛(٧) وهو يدرج الحدث الجديد في سلسلة التطور التاريخي. وهكذا فإن العصر الوسيط هو أولاً فترة انحطاط للعقل البشري:

"إن أوروبا المحاصرة بين الطغيان الكهنوتي والاستبداد العسكري تتحين في الدم والدموع اللحظة التي تسمح لها فيها الأنوار الجديدة بأن تشهد ميلاداً جديداً للحرية وللإنسانية وللفضائل".

وتاريخ تلك الفترة إنما يتميز بالتعارض بين القوة المسلحة والقوة الدينية. والحروب الدينية، بإنهاكها لهاتين القوتين، إنما تسمح بالتطور البطيء للأنوار والتمدن بشكل عام كما تسمح بتهديد الاستبداد نفسه:

"لقد تهذبت الأخلاق من جراء الضعف الذي أصاب الأوهام والتي كانت قد حافظت على بشاعتها، كما تهذبت من جراء تأثير تلك الروح التجارية والصناعية المعادية للعنف وللقلاقل التي تحكم على الثروة بالاختفاء، وتهذبت كذلك عبر ترويج أوسع للأفكار الفلسفية عن المساواة والإنسانية، وتهذبت أخيراً عبر الأثر البطيء ولكن الأكيد للتقدم العام للتنوير".

وإلى هذا الحد لا تعتبر هذه الفكرة أصيلة. فهي مشتركة بين جميع الثوريين الذين يفكرون في السرعة التي فقدت بها المؤسسات "الإقطاعية" قواها في القرن الثامن عشر .والشيء المهم في منظور كليبر، هو أنه يرى أن الصفحة البيضاء التي بحدثها الثورة قد أصبحت، بمرور الوقت، صفحة فاشلة لا بداية جديدة:

"بما أن الطموح يتأكد قبل التمكن سلفاً من التحكم فيه وتوجيهه، يحدث انكباب غير مدروس على الانطباعات . فالقوى كلها تتحرك دون أن يكون بوسع أية قوة منها أن توضح ما الذي تريده بالضبط . ومن هنا النجاحات التي لا ترجع إلاّ إلى الصدفة، والمشاريع التي تنتهي بسبب العجز عن مواصلتها وكل انعدامات الإيمان التي تجر العار على هذا العصر".

والنتيجة التي تترتب على ذلك إنما تشبه بشكل غريب حالة فرنسا في عهد حكومة الإدارة:

"آه! ما أكثر العادات التي ماتزال متباينة عن المبادئ التي جرى البدء باستعراضها وعن الحقوق السياسية التي يجري السعي إلى استردادها! لقد تفككت كل العُري، وكل السلطات غير لائقة وهيمنة اللياقة نفسها تبدو ضعيفة".

وفي وضع كهذا، إلام تؤول الدولة؟ هناك فرضان ممكنان. الأول هو الانحلال الناشئ عن ضعف السلطة والذي يؤدي إلى الغزو الأجنبي وإلى الفتح من جانب الجيران:

"وعندئذ تنتقل الشعوب إلى حالة أسوأ من الحالة التي كانت عليها عند الخروج من البربرية . فقوانين الفاتح تناضل ضد قوانين الشعب المفتوح .وعادات الأول ضد عادات الآخر، وأخلاقه ضد أخلاقه، وديانته ضد ديانته، وتختلط لغته بلهجة أجنبية .وتلك فوضى يصعب التنبؤ بما سوف تنتهي إليه، وهي فوضى لا تنجلي إلاّ بعد مرور عدة قرون، وتبقى منها آثار لا تتمكن أسعد

الأحداث من محوها أبداً بالكـــامل".

ولا يبدو أن هذه الفقرة تخص فرنسا الثوريـــة بشـــكل مباشـــر. فهي تخص بالأحرى أوروبا في بداية العصـــر الوسـيط، وربمـــا تخـــص ايرلندا، إلا أنها ربما تخص أيضاً مصر الخاضعـــة لسـيطرة الفرنسـيين. ونجد هنا من جديد عداوة كليبر العميقة لروح الفتـــح، مؤسســـة هـــذه المرة على فلسفة للتـــاريخ.

والفرض الثاني، الذي يجري تناولـــه باختصـــار، هـــو الانحـــلال الناشئ عن نفاد صبر الرعايـــا:

"إذا ماتمكن نفاد صبر الرعايا من كسر نـــير تعبـــوا مـــن التـــأوه تحته، فإن الأمة سوف تتقدم بهذه الدرجة أو تلـــك مـــن السـرعة نحـــو الفوضى عبر بحار من الدمـــاء"

فهل يوجد حـــل؟

"لا يتطلب الأمر غير رجل واحد لكي يتغــــير شـــكل الدولـــة، وهذا الرجل لا ينعدم وجوده أبداً تقريبـــا؛ وأولئـــك الذيـــن يحكمـــون هم الذين لا يتمكنون من اكتشـــافه".

فمن هو هذا الرجـــل؟

لا يمكن أن يكون كليبر نفسه. فرفضـــه للقيـــادة العليـــا يشـــير بوضوح إلى رغبته في أن لا يكون الرجـــل الأول.

وهو لا يمكن أن يكون مدنيـــاً . إن خيبـــات أمـــل كليـــبر في الفانديه قد حسمت خلافه مع اليعاقبة. وهو لـــن يلتقـــط "أبـــداً مـــن الوحل شارة اليعاقبة الدمويـــة".

وهـــو عميـــق الاحتقـــار لسياســـيي حكومـــة الإدارة الذيـــن يسميهم، كبونابرت، بـــ "المحامين" (الآفوكـــات).

ومن ثم فالرجل المقصـــود هـــو عســـكري .وبالاشـــتراك مـــع مـــورو وكافـــاريللي في شـــايو، كـــان يحلـــم بإصلاحـــات عميقـــة للدولة، لكنه لم يفعـــل شـــيئاً وإن كـــان قـــد اســـتثار ريبـــة مـــبررة

من جانب حكومة الإدارة.

ومن الواضح أن الرجل المقصود هو بونابرت، فاتح إيطاليا. فقد رأى فيه، شأنه في ذلك شأن جانب كبير من الكادر الجمهوري، المنقذ الممكن.

ويتحدث نابوليون في سانت هيلانة عن اقتراح فعلي من جانب كليبر باستيلاء على السلطة .ففي حديث مع برتران، بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨١٦، يتحدث عن تلك الواقعة:

"قبل إعلان الإمبراطورية، كان كليبر قد اقترح وضعي على رأس الحكومة، وقد قال لي: معك ومورو وأنا، سوف نطرد هؤلاء الأوغاد، لا تنزعج.

"لكنني لم أكن أؤمن بأن الأحداث ناضجة لذلك ومن جهة أخرى، فقد كنت جمهورياً صادق الإيمان .ولم أكن أعرف جيداً إلى أي مدى يريدون السير، ولعلهم هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون كذلك، وكان آخرون أغبياء أو عملاء للبوربون"[٨].

وفي يناير ١٨١٩، يذكر بشكل محدد:

"لم يكن (كليبر) يحب الثورة. ولدى العودة من إيطاليا، كان يريد بالاشتراك مع كافاريللي أن يصعد على رأس السلطة وهو لم ير في ذلك غير وسيلة للظهور وللحصول على النسوان والمال. وكان معه سييس .وقد قال لي: "سوف أعطيك جيش الراين . ومن جهة أخرى، سوف يكون بوسعك أن تفعل ما يحلو لك؛ معك جيش إيطاليا، فما الذي تخشى منه؟"[٩].

فما هو الصحيح في هذه المزاعم؟ إن عداوة كليبر لحكومة الإدارة مؤكدة . وقد رأينا موقفه خلال ١٨ فروكتيدور . وليس بوسع بونابرت إلا أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار في حساباته السياسية، لكن الأحداث لم تكن قد نضجت بعد لاستيلاء على السلطة . والإشارة إلى سييس وإلى كافاريللي إنما تحيل إلى أوساط

الايديولوجيين وإلى من سوف يصبحون "البرومـيريين" المسـئولين عـن صعود بونابرت على رأس السـلطة.

وبونابرت يرتاب في انعدام رؤية بعيـدة المـدى لـدى كليـبر، ومن المرجح أنه لم يخطئ في ذلك. وعلـى أيـة حـال، ففـي بداية الحملـة، كـانت مقترحـات الألزاسـي واضحـة . وفي ١٩ يوليـو ١٧٩٨، في الإسكندرية، تروج شائعات: لقد حـدث انقـلاب جديـد في فرنسا. وعندئذ يكتب كليبر إلى بونابرت الـذي يعتقـد أنـه أدرى بالموضوع:

"لقد قررت، قائدي الجنرال، أن أتبعك حيثما كنـت، وسـوف أتبعك أيضاً في فرنسا؛ ولن أنفذ البتة بعدُ أوامـر صـادرة مـن أحـد غيرك، ولا أريد أن أكون على اتصال مباشـر بالحكومـة"[١٠].

وهكذا فبالنسبة لكليبر، وهو بعيـد عـن أن يكـون وحيـداً في ذلك، فإن بونابرت يمثل عندئذ حل مشكلة أزمة الحكم الـتي تمـر بهـا فرنسا.

ثم تحـدث المواجهـة الأولى بـين الرجلـين حـول إدارة الإسكندرية. وتنجم المفارقة من أن كليبر هـو في آن واحـد لا يحـب هذا المنصب ولا يحتمل في الوقت نفسه وصاية القائد العـام الشـديدة. وفي سانت هيلانة، سوف ينصفه نـابوليون:

"لقد كنت راضياً دائماً عن كليـبر في مصـر، ولم يفلـت منـه قط شيء أمامي. وكثيراً ما كان يطمح إلى كلمـة ثنـاء مـني. وقـد وجدني، منذ نـزوله (إلى الإسـكندرية) جـد مختلـف عـن جميـع الجنرالات الآخرين الذين عرفـهم. وقـد تركـت كليـبر في قيـادة الإسكندرية. وكان القائد العام مسـئولاً عـن كـل شـيء ويصـدر الأوامر للجميـع ويدخل في كل التفـاصيل. وكـان يقـول أحيانـاً: "إنك تفهم الأمر على هذا النحـو، لكنني أفهمه علـى نحـو آخـر. يجب عمـل كذا وكـذا".

"وربما أحس كليبر بشيء من الجـــرح مـــن جـــراء مثـــل هـــذا الأسلوب في القيادة، فهو أسلوب لا يترك لـــه غـــير دور المـــرءوس . ثم إنني كنت شاباً، وأظن إنني ربما كنت مسرفاً في غـــروري"[١١].

ويرجع أصل الأزمة الثانية إلى حملة الشام. وهـــي في هـــذه المـــرة ليست سافرة، لكن بونـــابرت لا يمكنـــه إلاّ أن يكـــون مدركـــاً لأثـــر انتقادات كليبر غير المؤاتية على انضباط الجيـــش .والجميـــع يعرفونهـــا، بل إن الإنجليز يدرجونهـــا في حســـاباتهم . ودون أن يـــدرك ذلـــك، يتجاوز كليبر حدود الصراحة المعتادة في جيوش الثـــورة . وفي ســـانت هيلانة، لن يدلي نابوليون إلاّ بتلميحات قليلة عنـــها:

"في عكا، لم يشأ كليبر الحضور لرؤيـــة الثغـــرة ولا الإدلاء برأيـــه لي حتى يتسنى له التمكن من توجيه النقد إذا مافشـــلت المحاولـــة .ومـــع ذلك فقد وجدت نفسي مضطراً إلى إرسال الأمر إليـــه ثـــلاث مـــرات بعدم شن الهجوم، فقد كان يريد الزحف علـــى رأس الجنـــود"[١٢].

وإذا كان نابوليون يسكت نسبياً عن هذه الأزمـــة، فمـــا ذلـــك إلاّ لأنه يتمسك بأسطورة عكا التي تشـــكل نقطـــة تحـــول في حياتـــه. والحديث عن انتقـــادات كليـــبر، يجـــر إلى التعريـــض بأخطائـــه، أو بالأحرى، بالنتيجة العبثية للرهانات الخطرة التي تميز تلـــك الحملـــة.

وتنبع الأزمة الثالثة في علاقاتهما مـــن رحيـــل بونـــابرت الســـري ومن هجوم كليبر علـــى تركـــة ســـلفه .وفي ٣١ أغســـطس ١٨١٦، يرى برتران أن كليبر قد عومل كمـــلازم .وبشـــكل غـــير مقصـــود، يستعيد هذا المحارب القديم في مصر عين المصطلح الـــذي كـــان كليـــبر قد استخدمه لتعريف مسلك بونابرت .ويـــرد نـــابوليون:

"لم يكن بوسعي إفشاء سري لكليبر الذي كان مـــن المحتمـــل أن يثير مصاعب . وكان هذا الرحيل علـــى أكـــبر جـــانب مـــن الأهميـــة بالنسبة لي . وأعتقد أن دافع استياء كليبر الرئيســـي هـــو أنـــني حرمتـــه من ثلاثمائة من جنود الطليعة[١٣] وهـــو أمـــر كـــان يشـــكل بـــالفعل

خسارة له، وكان عليّ حمايتـــهم، ولا شـــك أن ٣٠٠ رجـــل يمكـــن الاعتماد عليهم وينتمون إلى الصفوة كانوا شيئاً بـــالغ الأهميـــة . ولـــو كان كليبر قد عاد إلى فرنسا، فلربما ســـبب لي حرجـــاً، ليـــس بعـــد صلاح آميان، فآنذاك كنت على جانب كبير من العظمـــة، ومـــا كـــان لذلك أن يؤذيني، وعندما بلغني خبر استسلامه، فـــإن ذلـــك لم يحزنـــني كثيراً، فعودته كان من الممكن أن تكون جد مفيدة لي .ولو كـــــان قـــد وصل في مايو، لأحسنت استقباله .لقـــــد دبـــرت حركـــة مـــارينجو. ومجيء ٢٥٠٠٠ رجل من الصفوة من شأنه أن يكـــون قـــوة حاسمـــة. ولم تكن مصر تمثل بعد بالنسبة لي شـــيئا بالقيـــاس إلى وجـــود فرنســـا السياسي . ولو كان ذلك قد حـــدث بعـــد ذلـــك، لاختلـــف الأمـــر كثيراً"(١٤).

وهكذا نرى أن النـــزاع بـــين الرجلـــين لا يســـتند إلى مواجـــع مادية ربما باستثناء عكا، لكن معركـــــة أبوقـــير البريـــة تعـــوض هـــذه المواجع إلى حد بعيـــد. فالمشـــكلة في مكـــان آخـــر، فـــهي تتصـــل بالجمهورية وبالوطن.

لقد رأى كليبر في بونابرت المنقذ الممكن، الرجل العظيم المنتظـــر. وهو في هذا إنما يمثل جانباً كبيراً من الكادر السياسي والعسكري للثـــورة الآخذة بالانتهاء . لكنه، عبر احتكاكه ببونابرت في مصر، سوف يـــدرك، أسرع بكثير من الآخرين، أن قسوة البطل نفسها، بدلاً من أن تـــؤدي إلى الاستقرار جد المنشود، إنما تنذر على العكس من ذلـــك بـــأن تجـــر إلى مغامرات أخطر بكثير جداً على الوطن .وتجربته المصرية تستشرف التطـــور السياسي للوسط الذي انبثق منه .وسوف ينتظر البروميريون عدة ســـنوات قبل أن يكتشفوا الحقيقة المروعة.

ويوميات كليبر هي شهادة غير عادية على الفتنـــة الـــتي يمارســـها الفاتح الشاب على كليبر الأكبر منه سناً، ويمكـــن رصـــد الانـــزعاج المتزايد لدى هذا الأخير رصداً واضحـــاً:

وهكذا، ففي طولون، يضع نفسه في موضع المراقب:

"إنني لا أعرفه بعد البتة .لقد ظهر فجأة تماماً على المسرح، وتمكن من إحاطة نفسه بسرعة بكثير من الهيبة، وكان صعوده سريعاً إلى حد بعيد بحيث إنني من المسافة التي وجدت نفسي عندها، كان من المستحيل عليَّ أن أرصده وأن أتابعه .ومن ثم ففي وسط الأحداث التي تتهيأ يجب عليَّ فحصه: هناك، عن قرب أكثر، سوف أجتهد في معرفة سماته من خلال الأساليب والوسائل التي سوف يستخدمها لكي يصل إلى النتائج الكبرى التي يطمح إليها، كما سوف أجتهد في معرفة شخصيته وتركيبه من خلال الحكايات والنوادر التي لن يتخلف عن روايتها في ظروف غير عادية بالمرة".

والشخصية السياسية المثالية بالنسبة لكليبر هي واشنطون، فعندما سأله كافاريللي عن النموذج السياسي المرغوب فيه أكثر من سواه بالنسبة لفرنسا، فإن هذا الاسم هو الاسم الذي يقدمه، محدداً العمل الذي يجب الاضطلاع به:

"ذلك لأن واشنطون قد استهل وأنجز مشروعه المجيد ولأنه اعتمد في نجاح هذا المشروع على الوسائل التي تتناسب معه، ولأنه عندما حصل على هذا النجاح، لم يفقده ذلك رشده البتة: وأخيراً لأن هذا المشروع كان جديراً بالثناء أكان ذلك من النواحي السياسية أم من نواحي الفلسفة، فما كان يهدف إليه ليس هو الفتوحات وأعمال النهب والتدمير، بل استقلال أمته وخيرها".

ومن جهة أخرى، فإن كليبر يشتبه في أن بونابرت هو الذي حرض كافاريللي على توجيه هذا السؤل سعياً إلى استطلاع نواياه بالنسبة للمستقبل .والواقع أن الألزاسي يدرك بسرعة أن بونابرت هو شخص آخر تماما قياساً إلى المنقذ المنتظر .فهو خطر على الوطن، لأنه "يلعب مع التاريخ"، أي "يلعب بأرواح البشر وبالمصائر العامة والخاصة، وبخير وبهناء الوطن".

ومنذ تلك اللحظة لا يرى كليبر في بونابرت غير"طموح مفرط ولا يتناسب البتة مع معارفه ومواهبه".

وبعد ١٨ برومير، فإن فرنسا"ما كان يمكن إخضاعها على يد مهرج أحقر من هذا المهرج".

أما الدستور فإنه" ليس غير قناع خبيث، رأى الطاغية أن من المناسب التستر به مؤقتاً وسوف يلقيه من النافذة، إن لم يجبر إلقاؤه هو نفسه منها، قبل أن يصبح غير مجد بالنسبة له".

وتنبع دراما كليبر العميقة من إدراكه أن استبداداً جديداً ينشأ وأن حروب الفتح والنهب سوف يجري استئنافها، وأن الحرية لم تعد لها قائمة وأن الوطن سوف تجري التضحية به لحساب أطماع رجل واحد وأنه لا يمكن عمل شيء لمواجهة ذلك مادام أن العجز عن إقامة جمهورية حقيقية والعثور على واشنطون فرنسي هو الذي فتح الطريق أمام بونابرت. الإرهاب الدموي والفوضوي للنظام اليعقوبي أو استبداد بونابرت الجديد، تلك هي المعضلة التي يجد كليبر نفسه أمامها .وعندئذ فإن الاعتزال، والموت في الروح، إنما يبدو له، ليس حلاً، بل الموقف الوحيد الذي يمكن اتخاذه.

ونابوليون يعرف جيداً ما يمثله كليبر في مغامرته الشخصية: إدانة معنوية لروح الفتح والسلطة . وفي سانت هيلانة، سوف يتهجم بشراسة، ليس على مسلك كليبر [١٥]، بل على شخصيته نفسها . إذ يجب عليه أن يتسف بالكامل سمعة البطل الألزاسي:

"إنه كسول، سمح لنفسه بأن يكون إمعة لداماس الحقير، محسوبه. وكان لا يكف عن الإشادة بالقوات الألمانية و لم يكن يفكر إلاَّ في ملذاته.

"في خيمتي، عندما كنت أتحدث عن باريس، كثيراً ما كنت أرى وجهه يتغير . لم يكن يفكر إلاَّ في نسوان وملذات العاصمة. بينما كان ديزيه يعشق المجد لأجل المجد". [١٦]

المحتويات

للمترجم

تأليف:

- **تروبادور الصمت**، در النيــــل، الإســـكندرية، ١٩٩٤.
- **مرايا الانتلجنسيا**، داز النيـــل، الإســـكندرية، ١٩٩٥.
- **مبدأ الأمل**، دار حور، القـــــاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة:

- ز. ا. ليفين: **الفكـــر الاجتمـــاعي والسياســـي الحديـــث فى لبنـــان وسوريا ومصر**، دار ابن خلـــدون، بـــيروت، ١٩٧٨.
  ط٢ تحت عنوان: **الفكر الاجتمـــــاعي والسياســـي الحديـــث في مصـــر والشام**، شرقيات، القـــاهرة، ١٩٩٧.
- ز. ا. ليفين: **التنوير والقومية. تطـــور الفكـــر الاجتمـــاعي العـــربي الحديث**، مكتبة مدبولي، القـــاهرة، ١٩٨٧.
- جورج حنـــين: **لا مـــبررات الوجـــود**، أصـــوات، القـــاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كـــامل).
- تيموثي ميتشل: **اســـتعمار مصـــر**، ســـينا للنشـــر، القـــاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حســـان)
- ك. ب. كافافي: **قصائد**، دار إليـــاس، القـــاهرة، ١٩٩١.
- تيموثي ميتشل: **مصـــر في الخطـــاب الأمـــيريكي**، مؤسســـة عيبـــال، نيقوســـيا، ١٩٩١.
- تزفيتان تودوروف: **فتح أمريكـــــا، مســـألة الآخـــر**، ســـينا للنشـــر، القـــاهرة، ١٩٩٢.
- روبير مانتران (اشـــراف): **تـــاريخ الدولـــة العثمانيـــة**، جـــزءان، دار الفكر، القـــاهرة، ١٩٩٣.
- فيليب فارج ويوســـف كربـــاج: **المســـيحيون واليـــهود في التـــاريخ**

الإسلامي العربي والتركي، سينا للنشـــر، القـــاهرة، ١٩٩٤.

- ادواردو جاليـــانو: **الشـــرايين المفتوحـــة لأمريكـــا اللاتينيـــة – تـــاريخ مضـــاد**، دار النيـــل، الإســـكندرية، ١٩٩٤ (بالاشـــتراك مـــع أحمد حســـان).
- توماش ماستناك: **الإســـلام وخلـــق الهويـــة الأوروبيـــة**، دار النيـــل، الإســـكندرية، ١٩٩٥.
- هنري لورنس وآخرون: **الحملـــة الفرنســـية في مصـــر – بونـــابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهـــرة، ١٩٩٥.
- توماس ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر – الهنـــود الحمـــر والأتـــراك والبوسنويون**، دار مصر العربيـــة، القـــاهرة، ١٩٩٥.
- جورج حنين: **أعمال مختارة**، منشـــورات الجمـــل، كولونيـــا، ١٩٩٦. ط٢ (موسعة) تحت عنوان: منظورات، الهيئـــة العامـــة لقصـــور الثقافـــة، القـــاهرة، ١٩٩٨.
- تيموثي ميتشل: **الديموقراطية والدولـــة في العـــالم العـــربي**، دار مصـــر العربية، القـــاهرة، ١٩٩٦.
- زكـــاري لوكمـــان: **خطـــاب الأفنديـــة الاجتمـــــاعي، ١٨٩٩–١٩١٤**، دار مصر العربية، القـــــاهرة، ١٩٩٧.
- جان – كلود جارسان: **ازدهار وانهيـــار حـــاضرة مصريـــة: قـــوص**، سينا للنشر، القـــاهرة، ١٩٩٧.
- هنري لورنس: **المملكة المستحيلة – فرنسا وتكويـــــن العـــالم العـــربي الحديث**، سينا للنشر، القـــاهرة، ١٩٩٧.
- هنري لورنس: **بونابرت والإســـلام. بونـــابرت والدولـــة اليهوديـــة**، دار مصر العربية، القـــاهرة، ١٩٩٨.
- جويس منصور: **افْتحْ أبواب الليـــل**. منشـــورات الجمـــل، كولونيـــا، ١٩٩٨.
- عبد الله الشيخ موســـــى: **الكـــاتب والســـلطة**، دار مصـــر العربيـــة،

القـاهرة، ١٩٩٩.

- فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الأول: **المكـــان والتـــاريخ**، المجلـــس الأعلى للثقافة، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- فرنان برودل: **هوية فرنسا**، المجلد الثاني: **النـــاس والأشـــياء**، المجلـــس الأعلى للثقافة، القاهرة، (تحت الطبـــع).
- صفاء فتحي: **إرهاب**، المجلس الأعلى للثقافـــة، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملـــة الفرنســـية علـــى مصـــر، الاستشراق المتأســـلم في فرنســـا (١٦٩٨-١٧٩٨)**، دار شـــرقيات، القـــاهرة، ١٩٩٩.
- برنار نويل: **لسان أنا**، دار شـــرقيات، القـــاهرة، ١٩٩٩.

بمناسبة عيد الأول من فانديمير، أمر بونابرت بأن يتم في أحد ميادين القاهرة نصب مسلة شاهقة الارتفاع، ليس من الجرانيت بل من سماك مغطى بكتان عليه رسوم، مثلما جرت العادة على ذلك في أيامنا . وبعد الاحتفال بالعيد، أحدث الجنود فتحة في القاعدة ودخلوا إليها . وقد وجدوا المكان مناسبا للسهر مع القحبات المصريات، وسرعان ما أصبح مرتعا للرذيلة والفجور . وفي النهاية، اختفى غطاء هذا النصب تماما . وهذا الأثر الذي كان في البداية جد رائع ويناطح السماء، وقد كف عن أن يكون غير وكر شائن ومثير للسخرية، إنما يشتهي ويتحسس سقوطه الوشيك . فإما أن أكون مخطئا بشكل فادح، أو أن قصة هذا الأثر، الذي أعلن نبأ تشييده لأوروبا بالطبل وبالزمر، سوف تكون قصة بونابرت نفسه".

كليبر، يوميات مصر



دار شرقيات للنشر والتوزيع